البلاغة القيّمة لآيات القرآن الكريم

«جزء عمّ»

د. عبد القادر حسين

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة

البلاغة القيّمة

لآيات القرآن الكريم

{ جزء عمّ }

دكتور عبد القادر حسين

أستاذ ورئيس قسم البلاغة

جامعة الأزهر

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

القاهرة

الكتـــاب : البلاغة القيمة لآيات القرآن
المـــؤلف : د / عبد القادر حسين
تاريخ النشـر : ١٩٩٨
رقـم الإيـداع : ٥٨٨٠ / ٩٨
الترقيم الدولى : I.S.B.N 977-215-329-7

الناشـــر : **دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع**
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٣٥٤٢٠٧٩ فاكس ٣٥٥٤٣٢٤

التـوزيـــع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقى الفجالة - القاهرة
ت : ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسـويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول

مقدمة

هذا اتجاه جديد فى تفسير القرآن الكريم، أقصد به التفسير البلاغى والتركيز عليه، لبيان ما فى القرآن من أسلوب رفيع يتمثل فى اختيار ألفاظه وترتيبها على نسق معين، ومهمتى فى هذا التفسير أن أكشف عن سر الجمال فى الأسلوب القرآنى مما يؤدى إلى صقل الذوق والحس اللغوى والأدبى عند القارئ.

هذا النهج لم يسر عليه أحد من المفسرين لا فى العصور الحديثة ولا فى القرون الخالية، اللهم إلا إذا استثنينا العالم البلاغى الشهير الزمخشرى ت ٥٣٨ هـ. ولم يكن الزمخشرى يبين جمال القرآن أو السر البلاغى فى القرآن آية آية - كما فعلت فى هذا الكتاب - ومن ثم رأيت أن المكتبة البلاغية خالية تماما من هذا الاتجاه البلاغى فى التفسير.

وكذلك فعل الشيخ الطاهر بن عاشور فى كتابه «التحرير والتنوير»؛ إذ لم يكن مصيبا فى كثير من الآراء البيانية أو تحليلاته البلاغية، أو المصطلحات التى تعارف عليها البلاغيون من قبل.

فلم يسلم تفسيره من الهنات التى لا يقرها المشتغلون بالبلاغة العربية - رغم جهده الكبير فى محاولة وضع الأمور فى نصابها - لذا تعيّن علىّ باعتبارى اشتغل فى هذا الحقل البلاغى منذ أكثر من ربع قرن، بالدراسة الجامعية المتخصصة التى تعنى بالدراسة البلاغية التذوقية، رأيت من حق الدراسين أن يكون بين أيديهم كتاب فى البلاغة لا يعنى بالمصطلحات قدر عنايته بإبراز سمات الجمال فى التعبير، التعبير الأخاذ الذى شمل القرآن الكريم فتباهى العرب بإعجازه وبلاغته.

سورة النبأ مكية

(عدد الآيات ٤٠ آية، نزلت بعد المعارج)

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾

﴿عَمَّ﴾ أصلها عن ما، فأدغمت النون فى الميم، وحذفت الألف ليتميز الخبر عن الاستفهام، ولتخفيف الكلام.

والاستفهام يؤذن بفخامة القصة التى يسألون عنها، والمعنى: عن أى شىء عظيم يسألون؟ والاستفهام ليس على حقيقته، بل جاء لمجرد التفخيم [1].

والفائدة فى ذكر السؤال والإجابة عنه؛ ما فى ذلك من التفهيم والإيضاح.

وسبب نزول السورة، أن رسول الله ﷺ حين أخبر قومه بالبعث وتلا عليهم القرآن، جعلوا يتساءلون فيما بينهم، ما الذى جاء به محمد؟ فأنزل الله سبحانه: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ والضمير فى يتساءلون، لأهل مكة.

وجاء لفظ (ما) التى يسأل بها عن الأشياء المجهولة، فسبحانه جعل الشىء الذى يعجز العقل عن إدراكه، والفهم عن استيعابه، كأنه مجهول.

﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾

﴿النَّبَإِ﴾ الخبر الذى له شأن. والمراد به القرآن. أورد سبحانه الكلام أولا على سبيل الإبهام للفت انتباههم، ثم بيّنه بما يفيد توضيحه وتفخيمه، فهو نبأ عظيم.

ووصف القرآن بأنه عظيم؛ لأنه ينبئ عن التوحيد والبعث والنشور والحساب والجنة والنار وغير ذلك مما هو مذكور بين طياته.

---

(١) قال السيوطى: إن الآية جاءت للتعجب - التحبير فى علم التفسير ص ٢١١.

يقول الزجاج: الكلام تام فى قوله ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وكان حق الإجابة: يتساءلون عن النبأ العظيم، ولكن بلاغة القرآن اقتضت الإيجاز.

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣)﴾

وأصل الكلام: الذى هم مختلفون فيه، فقدم الجار والمجرور لبيان أهمية النبأ الذى اشتد الخلاف حوله. فجعله بعضهم سحرا، وبعضهم شعراً، وبعضهم كهانة، واتفقوا على إنكار البعث.

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ عبر بالاسم الموصول، وجعل صلته جملة إسمية للدلالة على الثبات، وأنهم راسخون فى اختلافهم فى القرآن ونبوة محمد ﷺ، فمن جازم باستحالته، ومن شاكّ فى تعاليمه، ومن منكر للقيامة والبعث.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥)﴾

حذف ما يتعلق بالفعل اختصارا، أى سيعلمون ما يحل بهم، وكرر الآية توكيداً للوعيد على سبيل التهويل. ومبالغة فى التشديد [1]، وثم تفيد أن الوعيد الثانى أبلغ من الوعيد الأول؛ حيث نزل التراخى والبعد فى الرتبة منزلة التراخى فى الزمان.

﴿كَلَّا﴾ أداة ردع وزجر عن كفرهم وإنكارهم، وكل ما جاء به القرآن من بعث وحساب صادق لا محالة، ولا موضع للشك فيه أو الإنكار.

يقول الواحدى قرئ سيعلمون الأولى على الغيبة، والتاء على المخاطب أى قل لهم ستعلمون، وهذا جائز على سبيل الالتفات من الغيبة إلى المخاطب والخطاب أشد تقريعا وهولا ومآخذة، من الكلام بصيغة الغائب.

ثم بدأهم على سبيل التقرير بما يباشرونه دائما فقال:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦)﴾

وصف الأرض بالمصدر، كأنه جعل الأرض نفس المهاد لكمالها فيه، فهى

---

(١) عد السيوطى التكرار من أنواع المجاز وذكر هذه الآية - المرجع السابق ص ٢٠٦.

كالمهد للصبى ينام عليه ويقرّ به، والمهاد: الفراش والبساط. أى تتقلبون فيه كما يتقلب الرجل على بساطه.

وأداة الاستفهام الداخلة على النفى ﴿أَلَم﴾ تفيد التقرير؛ لأنها تنفى النفى فيكون إثباتا، أى أقررتم بأن الله جعل لكم الأرض مهادا وفراشا.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)﴾

تشبيه بليغ محذوف الأداة، أى جعلنا الجبال كالأوتاد لتسكن الأرض ولا تتحرك كما تثبت الخيام بالأوتاد، لا تميد بأهلها.

والوتد: ما يوتد ويحكم به الشىء المتحرك فيثبت ولا يتطاير.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨)﴾

من ذكور وإناث، ويدخل فيه كل زوج من المخلوقات: من قبيح وحسن، وطويل وقصير، وشقى وسعيد إلى غير ذلك.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩)﴾

قال الزجاج: السبات: النوم، والمسبوت: الميت، أى جعلنا نومكم راحة لكم.

فشبه النوم لما فيه من راحة الجسد - دون أن تفارقه الروح - بالموت، لأنه أقوى فى الظهور، فجعل النوم بمنزلة الموت فى السكون وتلاشى الحركة.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠)﴾

أى تلبسكم ظلمته فتغطيكم كما يغطيكم اللباس، على طريق التشبيه والتمثيل، فإن شبه الليل باللباس أكمل، وبتحقيق القصد أدخل.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١)﴾

أى جعل النهار مضيئا ليسعوا فيه ويقوموا بمعاشهم ورزقهم.

ونلحظ المقابلة بين الآيتين: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ والمقابلة تعطى المعنى شمولا وتعددا بسبب ما فيها من أوصاف متضادة.

والآيات الثلاث: ﴿ نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ و ﴿ اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ و ﴿ النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ من السجع المتوازن.

يقول الزنجانى فى كتابه «معيار النظار فى علوم الأشعار» ج ٢ / ٨٥ : إن السجع المتوازن يراعى فى الكلمتين الأخيرتين أو أكثر من القرينتين أو أكثر، الوزن مع اختلاف الحرف الأخير منها، وهو ما ينطبق على الجمل الثلاث.

وفى التنزيل ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ ﴾ ولم يقل وجعلنا اليقظة، لتقابل ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ ﴾، وإنما عبر عن اليقظة بالنهار، لكون النهار مستلزما لليقظة غالبا من جهة، ومن جهة أخرى لمراعاة مطابقة وجعلنا الليل.

﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) ﴾

سبع سموات قوية الخلق محكمة البناء، لا تتأثر بمرور الإعصار. وعبر بكلمة البناء - مع أنها تستعمل فى أسافل البيت، وهنا تشير إلى أن البناء كان من فوق، كانت سقفاً - لأنها بعيدة عن الانحلال والتفكك مثل البناء. فاختيار هذه اللفظة حتى تكون دقيقة فى إبراز المعنى المراد.

﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) ﴾

السراج: الشمس، والتعبير بكلمة السراج من روادف التعبير، عن الشمس كما عبر بالبناء عن خلق السموات، ﴿ وَهَّاجًا ﴾ مضيئا جامعا بين النور والحرارة. وهى من صيغ المبالغة لتفيد الكمال فى النور والشدة فى الحرارة.

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) ﴾

قال ابن عباس: ﴿ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ هى السحاب، مأخوذ من العصر؛ لأن السحاب ينعصر فيخرج منه الماء. ﴿ ثَجَّاجًا ﴾ : منصبا بكثرة، والتكير لإفادة الكثرة. ﴿ الْمُعْصِرَاتِ ﴾ : اسم فاعل بمعنى أن الرياح شارفت أن تعصر السحاب فتمطر، ولم تمطر بعد. فهى اسم فاعل والمراد به اسم المفعول مجازا.

﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) ﴾

الحب: الحنطة والشعير والذرة ونحو ذلك. والنبات مثل الحشائش والبرسيم ونحو ذلك. وبدأ بالحب لأنه الأهم حيث يتقوت به، ولكثرة نفعه، وشدة الحاجة إليه، فهو غذاء للناس فى الغالب. والنبات يتخذ علفاً للحيوان كالتبن والبرسيم. ﴿ لِنُخْرِجَ بِهِ ﴾ أى بذلك الماء.

﴿ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦) ﴾

الجنات تطلق على النخيل والشجر الكثيف الملتف أغصانه وينتشر ظله على الأرض. فكل ما فى الأرض من نعيم ينحصر فى هذه الأمور الثلاثة: الحب والنبات والشجر. وأخر ذكر الجنات عن الحب والنبات؛ لأن الحاجة إلى الفواكه ليست ضرورية مثل الحاجة إلى الحب والنبات.

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا (١٧) ﴾

يوم الفصل: يوم القيامة، وسمى بذلك لأنه يفصل بين الحق والباطل، ولذا كان وقته فى علم الله وتقديره دون غيره من المخلوقات، وبه تنتهى الدنيا و«ال» فى الفصل للعهد، أى العهد بالله هو الذى يفصل بين الناس. و ﴿ كَانَ ﴾ لا تفيد المضىّ؛ لأن يوم الفصل غير مقيد بالزمن الماضى، فهو أمر مقرر لا جدال فيه، قبل حدوث الزمان أيضا، ولذا أكد الكلام بأن.

﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا (١٨) ﴾

﴿ الصُّورِ ﴾: القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل. وهى النفخة الثانية، نفخة البعث من القبور إلى الموقف، فتأتون جماعات جماعات وأمما أمما، فأفاد التكثير فى ﴿ أَفْوَاجًا ﴾. ﴿ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ ﴾ بيان لقوله فى الآية السابقة ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ ﴾ لزيادة تفخيمه وتهويله. ومتعلق تأتون، محذوف اختصاراً، أى تأتون إلى موضع العرض والحساب. والمراد بالنفخ فى الصور، نفخ الأرواح فى الأجساد، فتحيا بعد موات.

﴿ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا (١٩) ﴾

فتح فعل ماض معطوف على ينفخ الفعل المضارع، وعبر بالماضى ليدل على تحقق وقوع الفعل، أى تفتح السماء، على وجه اليقين لتنزل الملائكة. فكانت أبوابا، أى قطعت قطعا كالأبواب، أو صارت كلها أبوابا مفتحة. فالتنكير فى ﴿ أَبْوَابًا ﴾ أفاد الكثرة الهائلة الشاملة.

﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا (٢٠) ﴾

أى طارت الجبال دون أن تستقر فى أماكنها، طارت فى الهواء، وصارت هباء، تلاشت وأصبحت لاشىء، فكانت مثل السراب الذى تظنه ماء وليس بماء.

أى صارت الجبال كلاشىء كما أن السراب يظن الناظر أنه ماء وليس بماء. فهو تشبيه فى غاية الدقة والروعة والجمال.

﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا (٢١) ﴾

كانت جهنم كالمنتظرة لقدومهم من قديم الزمان، طالبة لهم.

والمرصاد: المكان الذى يرصد فيه، أى أن خزنة جهنم يرصدون الكفار ويترقبونهم.

والمرصاد: من صيغ المبالغة «مفعال» فترصد أعداء الله وتشهق عليهم، وتستبدعيهم، وتكاد تتميز عليهم من الغيظ، أى تناديهم جهنم هلموا إلىَّ فأنا فى شوق لتعذيبكم.

﴿ لِلطَّاغِينَ مَآبًا (٢٢) ﴾

الطاغى: من طغى بكفره، والمآب: المرجع.

أى أن جهنم مرصاد للكل، ومآب للطاغين خاصة، وهم طاغون لاعتقاداتهم الباطلة. ودياناتهم الزائفة.

﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا (٢٣) ﴾

الأحقاب: جمع حُقْب وهو ثمانون عاما، أى ماكثين فى النار لا يبرحون

مكانها طيلة الأحقاب، وكلما انقضى حقب جاء حقب آخر، أى لابثين فيها على الدوام لا ينصرفون عنها، وذلك كناية عن التأبيد، أى يمكثون فيها أبداً ولهم عذاب مقيم.

﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا (٢٤) إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥) ﴾

تفسير لقوله ﴿ لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴾ ولذا لم تعطف على الجملة قبلها، فبين الجملتين كمال اتصال والاستثناء منقطع، يعنى لا يذوقون فيها بردا يخفف عنهم حر جهنم، ولا شرابا يسكن من عطشهم، ولكن يذوقون الحميم والغساق. والذوق يصلح للقليل وللكثير، وتنكير برداً وشرابا ليشمل كلا النوعين. والزجاج يجعل البرد شاملا لكل شيء له راحة، فقوله ﴿ وَلا شَرَابًا ﴾ تخصيص بعد تعميم لكماله فى الترويح. الحميم: الماء الحار المغلى، والغساق: صديد أهل النار.

هذه الآية تبين كيفية عذاب أهل النار فى أبشع صورة وأهولها، فهم لا يستريحون أبداً، لا روحاً ولا جسداً، ثم لا يذوقون إلا الحميم والصديد. فما أبشع هذا العذاب وأفظعه. وكلمة غساق فارسية معربة.

﴿ جَزَاءً وِفَاقًا (٢٦) ﴾

أى جازيناهم جزاء يوافق أعمالهم، فكانت أعمالهم سيئة، فأتاهم الله بما يسوءهم، ولم يزد على قدر الاستحقاق.

وصف الجزاء بالمصدر ﴿ وِفَاقًا ﴾ أى لا يخرج الجزاء عن أعمالهم فكانت لها وفقا. كأنه نفس الوفاق مبالغة؛ لأنهم أتوا بمعصية عظيمة وهى الكفر.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا (٢٧) ﴾

أى لا يخافون أن يحاسبوا بأعمالهم، وعبر بالرجاء بدلا من الخوف، لشدة استهتارهم واستبعادهم للحساب، فكلمة الرجاء أخف وطأة من الخوف، فعبر القرآن بما يناسب أحوالهم.

﴿ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا (٢٨) ﴾

يقول الفراء كِذّاب على وزن فِعّال، وهى لغة فصيحة يمانية، أى كذبوا بآيات القرآن تكذيبا شديدا، وأنكروها إنكارا لا مزيد عليه.

﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا (٢٩) ﴾

قدم المفعول ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ ﴾ وأعاد عليه ضميره فى أحصيناه، وذلك للاحتراز ببيان المعنى المقصود، ووضعه فى صورة ملائمة تنبئ عن الاهتمام بالمعنى، وعدم الانحراف عنه، أى لا يفوت الله سبحانه شىء لا يحصيه، فكل شىء يحصيه دون أن يتخلف عنه شىء على الإطلاق فكأنه تعالى قال: وكل شىء أحصيناه إحصاء مساويا فى القوة والثبات، و ﴿ كِتَابًا ﴾ جاءت لتأكيد ذلك الإحصاء.

﴿ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا (٣٠) ﴾

خاطبهم بذلك على طريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب زيادة فى التقريع والمهانة؛ لأن الخطاب أقذع فى الحساب وأشد نكالا. وينبئ عن التشديد فى التهديد. وفيه أسلوب قصر طريقه النفى والاستثناء، أى لا يزيدكم من صور الحساب إلا العذاب، فلا تنتظروا نعيما أو راحة.

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) ﴾

بعد أن فرغ من حال أهل النار، شرع فى حال أهل الجنة. ولم يعطف بالواو بين حال أهل الجنة وأهل النار لما بينهما من تضاد.

المفاز: مصدر بمعنى الفوز بالنعمة والنجاة من النار، وقيل للفلاة: مفازة، تفاؤلا بالخلاص منها.

وقدم فوز المتقين وخلاصهم من الهلاك على حصول المتعة واللذة التى جاءت فى قوله: ﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ لأن الخلاص من الهلاك لا يستلزم حصول اللذة والفوز بها، فتدرج التعبير من العظيم إلى الأعظم.

﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢) ﴾

جعل الفوز هو الحدائق والأعناب على طريق المبالغة، ونكر ﴿ أَعْنَابًا ﴾ دلالة على فيضها وكثرتها وتعظيم حال تلك الأعناب.

وذكر الأعناب مع أنها داخلة فى الحدائق، فخصص بعد التعميم لبيان فضلها، والحدائق: جمع حديقة، وهى الروضة ذات الأشجار التى يحيط بها جدار.

﴿ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا (٣٣) ﴾

الكواعب: جمع كاعب، وهى التى تكعب ثديها، أى صار مثل الكعب.

والأتراب: الأقران فى السن.

والآيتان: ﴿ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴾ من السجع لاستوائهما فى الوزن واتفاقهما فى العجز، مما يزيد الكلام حسنا وبهاء[(١)].

﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا (٣٤) ﴾

و ﴿ دِهَاقًا ﴾ معناها عند جمهور أهل اللغة الكأس المترعة الصافية، والمراد بالكأس الخمر، قال الضحاك: كل كأس فى القرآن فهو خمر.

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا (٣٥) ﴾

اللغو: الباطل من الكلام، ﴿ وَلا كِذَّابًا ﴾ : لا يكذب بعضهم بعضا، كناية عن معيشة أهل الجنة فى صفاء ومودة.

﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا (٣٦) ﴾

جزاء مصدر مؤكد، أى جازى المتقين جزاء وفاقا.

والعطاء والجزاء وإن كان ظاهرهما واحداً إلا أن مغزاهما مختلف، فالعطاء فيه معنى التفضل والزيادة، لا عن استحقاق وجدارة بل هو خاص بالمؤمنين. والجزاء فيه معنى العدل دون زيادة، فهو خاص بمعاملة الكافرين. فذكر القرآن فى وعيد أهل النار ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾. وذكر فى وعد أهل الجنة ﴿ عَطَاءً حِسَابًا ﴾. ولما بالغ فى وصف وعيد أهل النار ووعد أهل الجنة ختم الكلام بقوله:

﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا (٣٧) ﴾

---

(١) معيار النظار - الزنجانى - ج ٢ / ٨٣ ، تحقيق محمد على الخفاجى.

أى هو ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وحذف المبتدأ لتعينه وعدم انصراف الذهن إلى غيره. وخبره ﴿لا يَمْلِكُون﴾ .

والمعنى: لا يملكون أن يسألوا إلا فيما أذن لهم فيهم. وتنكير ﴿خِطَابًا﴾ للتقليل، أى لا يملكون معه خطابا ولو كان قليلا؛ جملة أو كلمة.

والطباق بين السموات والأرض، يفيد أن الله خالق الكون كله ومالكه، ويؤكده قوله ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾. ﴿الرَّحْمَنِ﴾ معناها مفيض النعم والخير على المخلوقات كلها.

والآية كناية عن نفى قدرتهم أن يخاطبوه بشىء من نقص العذاب أو زيادة الثواب.

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لاَّ يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا (٣٨)﴾

الروح: ملك عظيم، أو جبريل على المشهور [١].

وعطف ﴿الْمَلائِكَةُ﴾ على ﴿الرُّوحُ﴾ من عطف العام على الخاص، وقدم ﴿الرُّوحُ﴾ لتميزه عن بقية الملائكة. ﴿صَفًّا﴾ حالة كونهم بهذه الهيئة مصطفين. ﴿لاَّ يَتَكَلَّمُونَ﴾ فى موقف القيامة إجلالا لربهم وخشية منه وخضوعاً له، وإذا كان هذا هو موقف الملائكة، فما بالك بغيرهم.

ولا شك أن فى ذلك تهويلا بيوم البعث والحساب.

﴿إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ للإيذان بأن مناط الإذن هو الرحمة البالغة.

﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا (٣٩)﴾

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى يوم القيامة، وهى تفيد بعد منزلته وتعظيمه. وهو حق لأنه يدمغ كل باطل، وعرف اليوم الحق «بأل» للدلالة على كماله فى هذا المعنى. وفيه تخصيص له بالحق، وما عداه فهو باطل.

﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾ وعيد وتهديد وإنذار بالعذاب للكافرين والعصاة.

---

(١) يقول السيوطى: ملك لم يخلق الله بعد العرش أعظم منه رواه ابن جرير، وقيل: جبريل. التحبير فى علم التفسير ص ٤٠٦.

والمآب: العودة والرجوع. ومفعول المشيئة محذوف يدل عليه جواب الشرط، أى فمن شاء أن يتخذ إلى ربه مآبا اتخذ إلى ربه مآبا.

وزاد سبحانه فى تخويف الكفار فقال:

﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾

﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ نكر العذاب لبيان شدته وقسوته. والخطاب للمشركين؛ لأنهم ينكرون البعث. ووصفه بأنه قريب ﴿ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ لتحقيق وقوعه، فكل آت قريب. وعبر بكلمة ﴿ أَنذَرْنَاكُمْ ﴾ لما لها من فاعلية فى التخويف، فالإنذار ينبئ بنهاية التخويف وبعد مداه.

﴿ يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ فما فعله المرء من خير أو شر فى دنياه يراه بنفسه رأى العين كأنه شىء محسوس حتى لا يستطيع أن ينكره. و ﴿ مَا ﴾ استفهامية، أى ينظر أى شىء قدمت يداه؟

و ﴿ الْمَرْءُ ﴾ المراد به المؤمن والكافر على حد سواء؛ لأن كل أحد يرى عمله فى اليوم مثبتا فى صحيفته، والتعبير بيداه مجاز عن النفس، أى ما قدمته نفسه فى حياته.

﴿ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ «أل» فى الكافر تفيد جنس الكافر الذى يتمنى أن كان ترابا فى الدنيا ولم يخلق فيها، أو ترابا فى الآخرة حتى لا يشمله العذاب. يقول ذلك وهو حسير على موقفه المهين. وعبر بأداة التمنى؛ لأنه يعلم أن أمنيته ضالة ولن تتحقق أبدا.

والآيات من قوله تعالى ﴿ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ إلى آخر السورة ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴾ كلها تنتهى بالباء. وسجعها واحد، ويسمى هذا النوع عند علماء البديع بالسجع المتوسط، وهو ما كانت السجعة الثانية مثل الأولى أو أطول، ولكنه طول غير فاحش.

والسجع هنا حسن؛ لأن الألفاظ حلوة المذاق يلذ سماعها فى الآذان، كما أن الألفاظ تابعة لمعناها، وليست المعانى تبعاً لها، فيصيبها التكلف، وكل سجعة مخالفة فى معناها للسجعة التى قبلها، فاشتملت السجعات على غاية الحسن والرونق» [1].

* * *

(١) فن البديع - د. عبد القادر حسين - ص ١٢٧ طبعة دار الشروق.

سورة النازعات مكية

(عدد الآيات ٤٦ آية، نزلت بعد النبأ)

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) ﴾

الواو للقسم، والقسم يدل على عظم شأن المقسم به، و ﴿ غَرْقًا ﴾ مصدر والغرق والإغراق فى اللغة بمعنى واحد.

ومعنى ذلك: أن ملك الموت وأعوانه ينزعون الروح إذا حلّ أجل المرء، ويجذبونها من مقرها فى عنف، كما يجذب الرامى القوس بشدة فيبلغ به الحد الأقصى، فتبدو الروح وكأنها تنفذ من ثقب إبرة لشدة ما تعانيه من الجذب، وتسلخ منه كما يسلخ جلد الحيوان وهو حى.

فهذا شأن ملائكة الموت مع الكفار والعصاة، ومع المؤمنين فالأمر يختلف، وعبر عنه القرآن بقوله:

﴿ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) ﴾

تقول أنشط البعير، حل وثاقه، وكأنما أنشط من عقال، وجذب من مقره فى لين ورفق، فملائكة الرحمة تجذب أرواح المؤمنين من أطراف البنان ورءوس الأصابع، لا يحس ألما ولا يعانى شدة.

﴿ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) ﴾

أى أن الملائكة تسل أرواح المؤمنين فى هوادة ورفق ولطافة، كالذى يسبح فى الماء، فإنه يتحرك فى رفق ولين، أقسم سبحانه بطوائف الملائكة التى تنزل من السماء إلى الأرض مسرعة، يشبهون فى سرعة نزولهم بمن يسبح فى الماء.

﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) ﴾

عطف السابقات بالفاء دلالة على ترتيب السبق على السبح دون مهلة. وهو من عطف المسبب على السبب، أى اللاتى يسبحن فيسبقن. واسم الفاعل «السابقات» يدل على أن السبق من شأنهم لا يحيدون عنه، و ﴿ سَبْقًا ﴾ كناية عن الإسراع فيما أمروا به؛ لأن السبق من لوازم الإسراع.

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾

قال القشيرى: أجمعوا على أن المراد هنا الملائكة.

وعطف بالفاء، لتطابق الآية السابقة، ﴿ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴾ ، وإسناد التدبير إلى الملائكة مجاز؛ لأن المدبر فى الحقيقة هو الله سبحانه، والملائكة تنفذ تدبير الله.

وأصناف الملائكة التى تقوم بتدبير الأمور أربعة:

جبريل: وهو موكل بالرياح والجنود.

وميكائيل: موكل بالقطر والنبات.

وعزرائيل: موكل بقبض الأرواح.

وإسرافيل: موكل بأن ينزل الأمر عليهم.

وجواب القسم محذوف، أى: والنازعات والناشطات، والسابحات، فالسابقات، فالمدبرات لتبعثن. وحذف جواب القسم يقدر بما يدل عليه سياق الكلام، وهو كثير فى القرآن الكريم [1].

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ ﴾

عند النفخة الأولى التى يموت فيها كل حى. تضطرب الأرض وما عليها من جبال ووهاد وأنهار، فتزحف وتضطرب ويكون لها دوىّ كالرعد.

فالراجفة: صيحة عظيمة فيها هول وشدة كالرعد. وأسند الفعل ترجف إلى النفخة الأولى مجازا عقليا؛ لأنه أسند الفعل إلى السبب وليس إلى الفاعل الحقيقى.

---

(١) الإكسير فى علم التفسير، الطوفى البغدادى ص ٢٢٣. تحقيق د. عبد القادر حسين.

﴿ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ ﴾

أى النفخة الثانية التى ينهض فيها الأموات من قبورهم للحساب تأتى تالية وتابعة للنفخة الأولى، وسميت رادفة؛ لأنها تردف وتتبع الأولى.

﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ ﴾

نكر ﴿ قُلُوب ﴾ للتكثير، أى قلوب كثيرة عاصية، هى قلوب الكفار، وإنما جاز الابتداء بالنكرة لأنها خصصت بقوله ﴿ وَاجِفَة ﴾ .

﴿ وَاجِفَة ﴾ مضطربة خاشعة، دائمة فى اضطرابها وخشوعها وذلتها كما ينبئ التعبير باسم الفاعل. ﴿ أَبْصَارُهَا ﴾ أضاف الأبصار إلى القلوب، مجازاً، والمراد أصحابها، فعبر بالجزء وأراد الكل. وأسند ﴿ خَاشِعَة ﴾ للقلوب، مجازا؛ لأن القلوب محل الخشوع والخوف. والوجيف: اضطراب القلب، و ﴿ خَاشِعَة ﴾ : ذليلة منكسة.

﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ ﴾

هذا القول فيه دلالة على إنكارهم للبعث واستهزائهم بأنهم سيعودون أحياء فى قبورهم. وهكذا قال الخليل والفراء.

وتقول: رجع فلان فى حافرته، أى فى طريقه التى جاء فيها. و ﴿ الْحَافِرَة ﴾ هى الأرض التى تحفر فيه القبور. وحافرة بمعنى محفورة فهى مجاز عقلى علاقته المفعولية؛ لأن الحفر يكون من أصحاب الدنيا وليس من الحياة الدنيا نفسها، كما تقول عيشة راضية، والعيشة لا ترضى وإنما يرضى أصحابها، فهى مرضى عنها.

﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ ﴾

نكر ﴿ عِظَامًا ﴾ لتحقيرها وازدراء شأنها، و ﴿ نَّخِرَةً ﴾ بالية فاسدة. أرادوا أن يؤكدوا على أنهم لن يبعثوا، فكيف يكون البعث بعد أن يصيروا عظاما بالية مفتتة؟ ففى الآية تأكيد وإنكار. و ﴿ نَّخِرَةً ﴾ أبلغ من ناخرة؛ لأنها من صيغ المبالغة.

﴿ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾

عبر فى هذه الآية بالفعل الماضى ﴿ قَالُوا تِلْكَ ﴾ ولم يعبر بالمضارع كما سبق

﴿ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾ . فحين عبر بالمضارع أراد أنهم مستمرون فى كفرهم. وحين عبر هنا بالماضى أراد أن صدور هذا الكفر عنهم لم يكن على سبيل الاستمرار مثل الأول. و ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى البعيد لتفيد بُعْد وقوع البعث فى اعتقادهم ﴿ كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾ أى رجوع ذو خسران، وهو مجاز عقلى، فالكرّة لا تخسر وإنما يخسر أصحابها.

«والمجاز العقلى من محاسنه الإيجاز، والإيجاز من آثار البلاغة ويضفى على الكلام سحراً وخلابة» (١).

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (١٤) ﴾

إنما تفيد القصر والتخصيص، أى زجرة واحدة، وليست أكثر من ذلك. وليست صعبة ولا مستعصية على قدرة الله سبحانه (٢). والزجرة: هى صيحة إسرافيل، وهذه الصيحة هى النفخة الثانية، التى بموجبها إحياء الموتى فى قبورهم. وإذا تفيد المفاجأة، فيحدث ما أنكروه بسرعة فائقة. والساهرة: الأرض البيضاء المستوية، وسميت ساهرة لأن سالكها لا ينام خوفا منها، ويطير النوم من أجفانه.

والأرض لا تسهر، وإنما يسهر الناس فيها، فهى مجاز علاقته المكانية.

ثم استأنف الحديث تسلية لرسوله الكريم فقال:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) ﴾

شق على الرسول إنكار الكفار للبعث، فسرى عنه بذكر قصة موسى مع فرعون، وما تحمله موسى من مشقة عظيمة حين دعاه إلى التوحيد، فكان فى ذكر هذه القصة تسرية لرسوله ﷺ وتخفيفا عنه، وترغيبا له فى استماع حديثه، فالرسول لم يكن يعلم بحديث موسى مع فرعون وأنه لم يأته بعد، فلو كان يعلم لما حزن على إنكار قومه لرسالته واستهزائهم بالبعث.

---

(١) فن البلاغة - المؤلف - ص ٩٧.

(٢) «إنما» تجئ لخبر لا يدفع المخاطب صحته، أو ما ينزل هذه المنزلة، فالكافرون وإن كانوا ينكرون البعث، إلا أنهم نزلوا منزلة غير المنكر لسهولته على الله سبحانه ولكثرة الأدلة على قيامه ولا محل لإنكاره. نهاية الإيجاز - الفخر الرازى - ص ٣٦١.

والاستفهام للتقرير، والمراد به نفى إتيان الحديث لمحمد، لأن الاستفهام إذا دخل على المثبت نفاه.

والمعنى لم يأتك حديث موسى حين ناداه ربه بالوادى المقدس، ووصف الوادى بالمقدس؛ لأنه يقع فى حدود الأرض المقدسة المطهرة عن الشرك. والوادى: الأرض المنبسطة بين جبلين.

يقول الفراء: طُوى: واد بين المدينة ومصر، وهو واد بالقرب من جبل الطور.

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (١٧) ﴾

تفسير وبيان للنداء الذى ذكر فى الآية السابقة ﴿ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ ﴾ أى قال: اذهب إلى فرعون؛ لأن النداء فيه معنى القول.

ولذا لم تعطف هذه الآية على التى قبلها، كما لا يعطف التفسير على المفسر لما بينهما من كمال الاتصال.

يقول العلوى صاحب الطراز: باب الفصل والوصل دقيق المجرى، لطيف المغزى، جليل المقدار، كثير الفوائد، غزير الأسرار. الطراز ٢ / ٣٢.

يقول الإمام عبد القاهر:

«إذا جاءت الجملة الثانية ممتزجة بالجملة الأولى شديدة الاتصال بالتى قبلها: كأنهما أفرغا فى قالب واحد بأن تقع صفة أو بيانا، فلا يصح عندئذ العطف، وذلك لتنزيلها مع ما قبلها منزلة الشىء الواحد، والشىء لا يجوز عطفه على نفسه، وهذا ما يسمى بكمال الاتصال» (١).

﴿ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أكد طغيانه بأن، والطغيان مجاوزة الحد فى الأقوال والأفعال، فعلل أمره لموسى بالذهاب إلى فرعون حيث إنه طغى فى إنكاره للواحد القهار والألوهية لنفسه.

﴿ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) ﴾

---

(١) الدلائل - عبد القاهر ص ١٧٠.

الفاء تسمى فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن محذوف، أى: فإذا ذهبت إليه فقل هل لك سبيل إلى التزكى، ورغبة فى التطهر. فالاستفهام جاء هنا لتقرير الكلام، وعرضه فى صورة التلطف فى القول. ﴿ تَزَكَّىٰ ﴾ أصلها تتزكى، ولكن القرآن آثر التعبير بتزكى تخفيفا على اللسان. وسهولة فى النطق.

﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

أى أرشدك إلى معرفته، فإذا عرفته خشيته. فالخشية مترتبة على المعرفة، ولذا جاء بالفاء. وعبر بالمضارع مع أن الفعل وقع فى الماضى لاستحضار الصورة وتمثلها، كأن الهداية والخشية ماثلة أمامه مستمرة لا تتمحى.

فالتعبير بالفعل المضارع هو التعبير الدقيق الذى ينقل الصورة بكل أبعادها ومعانيها، صورة الهداية والخشية التى لا تزول ولا تنقطع.

وابن جنى تناول موضوع التعبير بالمضارع بدلا من الماضى، وذكر لذلك علة بلاغية ترجع إلى استحضار الصورة فى الذهن [١].

﴿ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

الفاء فاء الفصيحة؛ لأنها أفصحت عن جمل طويت، أى ذهب إليه موسى ودعاه إلى التوحيد والطاعة، فطلب منه فرعون المعجزة التى تدل على صدقه فأراه الآية الكبرى. وهذا الحذف جاء اختصاراً للكلام وبعدا عن التطويل خاصة أنه لا يخفى على القارئ اللبيب. والمراد بالآية الكبرى: قلب العصا حية وابتلاعها كل ما أتى به سحرة فرعون.

﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾

أى كذب موسى، وعصى ربه، وتمرد عليه بعد ما رأى معجزة موسى، وفى ذلك ذم لفرعون وتقبيح لحاله. وثم تفيد التراخى فى الزمن؛ لأن بين التكذيب والإدبار فترة زمنية يقتضيها الموقف والانصراف عن المجلس الذى يجمع فيه قومه.

---

(١) أثر النحاة فى البحث البلاغى - المؤلف - ص ٢٩٤، والخصائص لابن جنى ٣ / ١٠٥.

وانظر إلى ألفاظ الجملتين واستوائهما فى الوزن، مع اختلافهما فى الحرف الأخير، بين (عصى، ويسعى) وهو ما يسمى بالسجع المتوازن عند علماء البديع (١).

وأدبر: أعرض عن الإيمان. أو أدبر هاربا من الحية، ويسعى فى معارضة المعجزة عناداً وتكبراً.

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ ﴾

أى جمع السحرة ونادى فى الناس. فحذف المفعول: (السحرة)، والمتعلق بالفعل (فى الناس) لضيق المقام عند ذكره، فالوقت لا يتسع لإطالة الحديث، وهو فى شدة اللهفة لاقتصاصه من موسى، وإبقاء قومه فى طاعته، وعدم خروجهم عليه. وفسر النداء بالقول؛ لأن النداء قول فماذا قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴾ جواب عن سؤال مقدر، ويسمى ذلك عند البلاغيين شبه كمال اتصال. ولا يخفى على عاقل أن ذلك جاء على معنى الجواب، وأن فرعون جمع قومه ونادى فيهم ليجيبهم عن تساؤلهم الذى بدا على وجوههم فأراد أن يزيل شكوكهم فى ربوبيته قبل أن ينطقوا ذلك بألسنتهم.

وهذه الآية تفيد التخصيص: أى أنه هو الرب الأعلى دون سواه، فليس ثمة رب غيره، لا إله موسى وإله هارون بل هو الإله الأوحد.

﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ﴾

الأخذ فيه شدة وعنف، ولذا عبر بالمصدر ﴿ نَكَالَ ﴾ لتوكيد الأخذ، أى أن الله نكل به نكال الآخرة والأولى، فأخذه ونكله متقاربان، والنكال هو التنكيل بمعنى التعذيب. وأضاف النكال للآخرة والأولى مجازا لوقوعه فيهما.

والمعنى: عذبه فى الآخرة وأغرقه فى الدنيا.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾

أى ما ذكر من قصة موسى وفرعون عظة وعبرة لمن يخشى الله ويحاذر

---

(١) معيار النظار - الزنجانى - ص ٨٥.

غضبه. واستعمل أدوات التوكيد ﴿إِنَّ﴾ ودخول اللام على اسم إن ﴿لَعِبْرَةً﴾ ونكرها للتعظيم، أى عبرة عظيمة تنفع كل ما يتقى الله ويخشاه. وقدم الجار والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ التى تعود على قصة موسى وفرعون، لبيان أهميتها ورفعة شأنها.

وبعد أن ختم هذه القصة عاد إلى منكرى البعث وخاطبهم بقوله:

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧)﴾

الخطاب لكفار مكة، وقصد بالاستفهام التوبيخ والتبكيت، والمعنى، هل البعث أشد فى تقديركم من خلق هذا الجرم العظيم، أراد منهم الإقرار بأن خلق السماء أصعب وأشق، فكيف تنكرون الأهون والأسهل وهو البعث. ﴿بَنَاهَا﴾ أى التى بناها، ففى الكلام حذف والحذف جائز فى اللغة؛ لسهولة الكلام وخفته.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨)﴾

امتداد الشىء من أسفل إلى أعلى يسمى سمكا، وإذا أخذ من أعلى إلى أسفل يسمى عمقا. وصف السماء بأنها مرتفعة فوق الأرض، عالية فى الهواء. ﴿فَسَوَّاهَا﴾ مستوية ليس فيها ارتفاع أو انخفاض، محكمة الصنع ثم وصف السماء بوصف آخر:

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩)﴾

أى أظلم ليلها، وأبرز ضوء نهارها.

عبر عن النهار بالضحى، لأن الضحى أكمل أجزاء النهار، ولأنه يلزم من ذكر الضحى ذكر لازمه وهو شدة الضوء التى توجد فى النهار، فهذا تعبير كنائى، حيث عبر باللازم وأراد الملزم، وهو تعبير غير مباشر يلقى على الكلام شفافية وظلالا.

والمقابلة بين ظلمة الليل وضوء النهار واضحة لا تحتاج إلى بيان. وأخر ذكر الضحى عن ذكر الظلمة؛ لتمام النعمة كما يأتى الفرج بعد الشدة.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا (٣٠)﴾

بعد أن انتهى من خلق السماء ووصفها شرع فى ذكر الأرض وأوصافها، خلق

الله الأرض قبل السماء من غير أن يدحوها، وبعد تسوية السموات السبع دحا الأرض، فدحو الأرض بعد خلق السموات. ﴿دَحَاهَا﴾ بسطها وجعلها مهيئة لإنبات الأقوات.

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١)﴾

الماء ماء البحار والأنهار والعيون، والمرعى: كل ما تنبته الأرض، ويأكله الناس والأنعام، من عشب وحَبّ. فالآية تشمل العديد من أمواهها ومراعيها. وهو ما يسمى إيجاز القصر. «وهو الذى لا حذف فيه، أى لا يكون إيجازه بسبب الحذف، وتعبر عن المقصود بلفظ ناقص ولكنه وافٍ بأصل المراد»[1]، فهذه الآية من جوامع الكلم.

وجاءت الآية دون عطف بالواو؛ لأنها جاءت مفسرة وبيانا لقوله ﴿دَحَاهَا﴾ فى الآية السابقة. قدم الماء على المرعى؛ لأنه سبب فى وجود المرعى. والمرعى يتقوت به الحيوان حقيقة، والإنسان مجازا.

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢)﴾

أى ثبتها فى الأرض وجعلها كالأوتاد حتى لا تميد بأهلها. وقدم ذكر إخراج الماء والمرعى وأخر إرسال الجبال، للاهتمام بأمر المأكل والمشرب، فكان حقه أن يقدم.

﴿مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣)﴾

أى كل ما خلقناه من سماء وأرض وليل ونهار وماء ومرعى وجبال، خلقناه لأجل متعتكم ولفائدة أنعامكم.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ (٣٤)﴾

الطامة عند العرب: الداهية التى لا تحتمل، وفيها معنى الغلبة والقهر، وهى النفخة الثانية، نفخة البعث من القبور، وسميت بذلك لأنها تطم على كل شىء

---

(١) خلاصة المعانى – الحسن المفتى (ت ١٠٥٩ هـ) – تحقيق المؤلف – الناشرون العرب ص ٢٨٣.

لعظم هولها. ووصفها بالكبرى مما يدل على أن النفخة الأولى هى الطامة الصغرى والنفخة الثانية هى الطامة الكبرى، لشدة أهوالها وفظاعتها، يترتب عليها البعث والنشور والحساب والجنة والنار ونحو ذلك.

﴿ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ (٣٥) ﴾

أى: إذا رأى أعماله مدونة مكتوبة تذكرها بعد أن كان قد نسيها. يتذكر ما عمله من خير أو شر. ﴿مَا سَعَىٰ﴾ ما مصدرية بمعنى «سعيه» أو موصولة أى الذى سعى فيه وبه. وسواء أكانت مصدرية أم موصولة فهى تفيد العموم، أى تذكر كل ما سعى فيه من خير أو شر.

﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) ﴾

برزت: كشفت، وظهرت بحيث لا تخفى على أحد من مؤمن أو كافر. فأهل الكفر يقبعون فيها، وأهل الإيمان يكتفون بالمرور عليها، فكل من له عين يبصر يرى هذه الجحيم بنارها المستعرة.

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٣٩) ﴾

الطغيان: مجاوزة الحد فى الكفر والمعاصى، وتفضيل الدنيا الفانية على الآخرة الباقية، فمنزلة جهنم يأوى إليه، وجملة ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ جواب إذا جاءت، والمعنى: إذا جاءت الطامة الكبرى فمن جاء طاغيا فإن الجحيم مأواه.

والآية نزلت فى النضر وأبيه الحرث؛ بطغيانهما واستئثارهما بالحياة الفانية. والمراد بالمأوى: مأواه، والألف واللام عوض عن المضاف إليه.

وقوله ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ تفيد القصر لتعريف الطرفين المسند إليه والمسند وبينهما ضمير الفصل.

والمعنى: أن الجحيم هى المأوى الذى لا مأوى سواه.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ (٤١) ﴾

﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أى مكان ربه، والله منزه عن المكان والجهة؛ والمراد المقام بين يدى ربه يوم القيامة للجزاء.

وأضاف المقام إلى الرب تفخيما وتهويلا عظيما لشأن الله.

﴿ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ أى زجر نفسه أن تميل إلى المعاصى فيتركها. ذكر النفس على العموم وأراد تخصيصها عليه، و«أل» فى الهوى للاستغراق، أى نهاها عن جميع الهوى والشهوات.

﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ «أل فى الجنة» تفيد النوعية؛ لأن المؤمن والعاصى كليهما يدخل الجنة، والجنة درجات وأنواع.

وفى الآية قصر، أى: فإن الجنة مأواه لا غيرها.

وبين الآيات ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ وبين قوله ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ مقابلة بين الطغيان وإيثار الحياة وأن الجحيم هى مأواه، وبين الاعتدال فى السلوك خوفا من الله، وعدم الركون إلى الحياة، والارتماء بين أحضان مفاتنها، وأن الجنة هى نزله ومأواه. وهذه المقابلة بين الأشياء وتضاد بعضها ببعض، فتكون غير متماثلة أو متوافقة كما فى الآيات المذكورة.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) ﴾

كان الكفار يسمعون أخبار القيامة ويسمعون عن أوصافها الهائلة فيسألون محمدا على سبيل السخرية والاستهزاء، ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ ؟ ومتى يقيمها الله ويثبتها وإلى أين انتهاؤها؟ يقولون ذلك استعجالا بوقوعها تهكما على رسول الله ﷺ. واستعار مرساها من إرساء السفينة إلى مستقرها ومنتهاها.

﴿ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا (٤٤) ﴾

أى فى أى شىء أنت من ذكراها؟

والاستفهام جاء إنكاراً لسؤال المشركين عن الساعة. فهى ممن استأثر الله بعلمها، وينتهى علمها إليه سبحانه. وفى أى شىء أنت يا محمد من ذكراها والسؤال عنها. ورسول الله كان دائم السؤال عنها ليجيب من يسأله عنها، وفى ذلك تعجيب من كثرة ذكره لها.

وقدم الجار والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على المبتدأ ﴿مُنتَهَاهَا﴾، لتفيد معنى القصر، أي لا يوجد علمها عند غير الله.

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾

وأنت يا محمد منذر فحسب، وليس عليك معرفة وقت وقوع القيامة، وأداة القصر ﴿إِنَّمَا﴾، والمقصور عليه ﴿مُنذِرُ﴾.

وخص الإنذار بمن يخشى، وإن كان الإنذار لكل مكلف مسلم أو كافر؛ لأن الذى ينتفع بالإنذار هو من يخشى يوم القيامة دون غيره ممن لا يخشاها.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾

أى كأن الكافرين يوم يرون القيامة ويشاهدونها بأبصارهم وحواسهم، ماثلة أمامهم، لم يخرجوا عن الدنيا ولم يتركوها لحظة، ولم يغادروها أبدا.

وقوله ﴿لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ كناية عن تقليل مدة الدنيا، فلم يقيموا فيها إلا عشية أو ضحى نهار.

* * *

سورة عبس مكية

(عدد الآيات ٤٢ آية ، نزلت بعد النجم)

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) ﴾

سبب نزول الآية: أتى رسول الله ﷺ صناديد قريش ومنهم أبو جهل وأمية ابن خلف والوليد بن المغيرة يدعوهم إلى الإسلام، فجاءه ابن أم مكتوم وكان رجلا مكفوف البصر، فقال للنبى ﷺ اقرئنى وعلمنى مما علمك الله، وقطع كلامه فانصرف عنه الرسول واهتم بصناديد قريش عسى أن يسلم بإسلامهم غيرهم، وعبس فى وجه ابن أم مكتوم، فنزلت هذه الآية.

كان ابن أم مكتوم يسمع أصوات القوم وإن كان لا يراهم، وعلم اهتمام الرسول ﷺ بأمرهم، فقطع كلام الرسول معهم مما يستحق عليه الزجر.

وعتاب الرسول لأنه عبس فى وجه ابن أم مكتوم، فيه تعظيم من الله له، وفى وصفه بأنه الأعمى ليس تحقيراً من شأنه، وإنما ذكر هذا الوصف لأنه يستحق مزيداً من الرفق والرأفة، فكأنه يقول لرسول الله ﷺ: لا يحق لك يا محمد أن تخصه بالغلظة والإهمال.

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ تجهم وأعرض، كلح بوجهه وانصرف عنه.

وأصل الكلام أن يكون موجها لرسول الله فيكون للمخاطب وليس للغائب، أى: عبست وتوليت، ولكنه لجأ إلى الغيبة تخفيفا عن رسول الله؛ لأن خطاب المرء بما يكره فيه قسوة وضراوة. وهذا التفات عند السكاكى على غير المشهور عند علماء البلاغة [(١)].

---

(١) التفات عند السكاكى لأنه التفت من الخطاب إلى الغيبة، الإيضاح ١٠٣ ط الآداب.

﴿أَن جَاءَهُ الأَعْمَى﴾ أى عبس وتولى لأن جاءه الأعمى، (فأل) فى الأعمى للعهد؛ لأنه أراد شخصا معينا معهودا عند رسول الله وهو ابن أم مكتوم.

هذا العتاب من باب ترك الأولى. وإن كان فى ذلك إنكار على رسول الله ﷺ.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ (٣)﴾

أى شىء يجعلك داريا بحال هذا الأعمى، أليس من المحتمل أن يتطهر بالعمل الصالح. ولعل أداة تفيد الترجى، باعتبار أن الإعراض عنه غير جائز؛ إذ يرجى تزكيه وتطهره.

قال أولا بأسلوب الغيبة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾، ثم التفت بأسلوب المخاطب(١)، فقال ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ (٤)﴾

﴿يَذَّكَّرُ﴾ معطوف على يزكى، فيدخل معه فى الترجى، أى لعله أن يذكر فتنفعه الذكرى، وتقربه إلى قبول الحق. والمراد بالذكرى: العظة.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ (٦)﴾

أى استغنى بثروته، واستغنى عن الإيمان، فأنت له تصدى، أى تتصدى، فحذفت التاء تخفيفا. وفى ذلك مزيد تنفير من مصاحبتهم والإقبال عليهم. وقدم الجار والمجرور ﴿لَهُ﴾ على الفعل ﴿تَصَدَّىٰ﴾ اهتماما بشأن من تصدى لهم لأنهم من أكابر القوم وأغنيائهم.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧)﴾

﴿مَا﴾ نافية، تفيد عدم العناية بأمر الكافر وترك الاهتمام به، فهو لا يتطهر من دنس الكفر، وليس عليك تزكيتهم وتطهيرهم، بل عليك فقط تبليغهم وإنذارهم فتكون نافية، أو أى شىء عليك ألا يسلم ولايتزكى؟ فتكون استفهامية، جاءت لتحقير الكافر وعدم الإصغاء له، واستهانة بمن أعرض عنه.

---

(١) لما فى ذلك من إيناس بعد إيحاش وإقبال بعد إعراض. محاسن التأويل - القاسمى ١٥ / ٦٠٥٧ - دار احياء الكتب العربية.

﴿ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخْشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ (١٠) ﴾

زيادة فى عتاب رسول الله ﷺ. «عبر بالاسم الموصول» ﴿ مَن جَاءَكَ ﴾ إيماء إلى وجه بناء الخير، وتعظيما له»(١)، وفى ذلك إشارة إلى سعيه للدخول فى الإيمان، وخشيته من الله، وغفلة الرسول عنه، ومثلك لا ينبغى أن يتصدى للغنى ويتلهى عن الفقير.

ومن أول السورة إلى قوله ﴿ تَلَهَّىٰ ﴾ سجع رائق جميل يدخل فى السجع المطرف، لتوافق أطراف السجعات فى الألف (٢).

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ (١١) ﴾

﴿ كَلَّا ﴾ أداة زجر وردع، وفيه زجر للنبى ﷺ؛ لأنه تصدى للمستغنى وأعرض عن المسترشد. والضمير فى ﴿ إِنَّهَا ﴾ للقرآن، والقرآن مذكر، ولكنه لما كان القرآن تذكرة وموعظة أخرجه على لفظ التذكرة فأنث الضمير وقال ﴿ إِنَّهَا ﴾ أو أن المراد بها سور القرآن وآيات القرآن. ونكر ﴿ تَذْكِرَةٌ ﴾ لتعظيمها ورفعة منزلتها حيث إنها تذكرة عظيمة. ولذا فليس لله حاجة أن يقبله الكفار أو لا يقبلوه.

﴿ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (١٢) ﴾

أى فمن شاء اتعظ به وعمل بموجبه، قدم عليه. واحتفى به

﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) ﴾

أودعه الله فى اللوح المحفوظ، وهذه الصحف مكرمة عند الله؛ لأنها نازلة من اللوح المحفوظ، أو مكرمة لما أودع فيها من العلم والحكمة.

﴿ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ رفع الله قدرها، وطهرها من أن يمسها شيطان فتنزع إلى الهوى. ومنزلها عند الله عظيمة. ولذا كان التنكير للتعظيم.

﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦) ﴾

---

(١) الإيضاح - الخطيب القزونى - تحقيق المؤلف - ص ٦٨ ط الآداب.

(٢) خلاصة المعانى - المفتى - تحقيق المؤلف - ص ٤٦٧ ط الناشرون العرب.

السفرة: الكتبة، ومعنى السافر: الذى يبين الشىء ويوضحه. وهم كرام عند الله، وكرام عن المعاصى لا يقربونها، بل يرفعون أنفسهم عن اقترافها، ووصفهم بأنهم بررة أى: أتقياء مطيعون لربهم.

وصف الملائكة المكلفين بحمل القرآن بثلاثة أوصاف: بأنهم سفرة، وكرام، وبررة. وبالغ فى وصفهم بهذه الصفات التى فيها معنى المبالغة، وجاء تنكيرها لتأكيد هذه الصفات لهم.

﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) ﴾

الآية نزلت فى عتبة بن أبى لهب، وإن كانت تصلح للعموم، يراد بها ذم كل غنى ترفع على فقير بسبب غناه.

أسلم عتبة ثم عاد إلى الكفر فدعا عليه رسول الله، أن ابعث عليه كلبك حتى يأكله، فأقبل أسد إلى رحله ومزقه تمزيقا، فكان أبوه يندبه ويبكى عليه ويقول: ما قال محمد شيئا قط إلا كان.

فإذا أريد بالإنسان عتبة «فأل» تكون للعهد، وإن أريد به العموم كانت «أل» للاستغراق والشمول.

﴿ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ تعجب من إفراط كفره، تعجب للمخلوقين وليس للخالق إذ يستحيل عليه التعجب، ويجوز أن يكون بمعنى التقريع والتوبيخ. فأى شىء حمله على الكفر. والقتل من أشنع الدعوات وأشد العقوبات وأفظعها.

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) ﴾

استفهام أراد به تقرير الإنسان على حقارته وهوانه، وقد أجاب عن مادة خلقه، فقال:

﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ﴾

أى خلقه من نطفة حقيرة، من ماء مهين، فلم - إذن - يتكبر ويتجبر ويترفع على الفقراء، وفى ذلك تحقير له. ﴿ فَقَدَّرَهُ ﴾ أى قدره أطواراً نطفة ثم علقة، ثم مضغة إلى أن يتم خلقه ذكراً أو أنثى.

﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ﴾

أى سهل خروجه من رحم أمه، وخروجه من ذلك المنفذ الضيق، والسبيل كناية عن ذلك. وهو من أعجب العجائب. أو يسر له طريق الخير وطريق الشر.

وعبر بتعريف السبيل بأل دون الإضافة فلم يقل: سبيله؛ للإشعار بعمومه؛ لأنه عام فى الإنس والجن والمؤمن والعاصى والكافر.

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ﴾

عبر بثم؛ لأن الموت بعد تيسير الحياة والولادة بفترة متراخية. وعطف أقبره بالفاء؛ لأن دفن الميت يكون بعد الموت دون مهلة.

﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢) ﴾

والنشر بعد الوفاة ووضع الميت فى قبره بفترة، ولذا عبر بثم التى تدل على الترتيب والتراخى.

وقال إذا شاء، ولم يقل إن شاء أنشره؛ لأن إذا تفيد تحقق وقوع الفعل، والنشر حقيقة مؤكدة لا نزاع فيها.

(وقدره، ويسره، وأقبره، وأنشره) فى الآيات السابقة من السجع القصير، وهو من السجع المتوازى.

والسجع المتوازى أن تراعى فى الكلمتين الأخيرتين، أو الكلمات الأخيرة اتفاق الوزن مع اتفاق الحرف الأخير منهما، أو منها [1].

وحذف مفعول المشيئة للبيان بعد الإبهام [2]، أى إذا شاء إنشاره أنشره.

﴿ كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (٢٣) ﴾

﴿ كَلا ﴾ ردع وزجر للإنسان الكافر.

﴿ لَمَّا يَقْضِ ﴾ لما بمعنى لم، وليس فيه معنى التوقع، أى لم يقض الإنسان ما

---

(١) معيار النظار ٢ / ٨٥ ، بغية الإيضاح ٤ / ٧٩.

(٢) الايضاح ص ١٣٧، وتفسير أبى السعود ٧ / ١٠٩.

أمره الله به من الإيمان والطاعة. والضمير فى قوله ﴿مَا أَمَرَهُ﴾ يعود على الله سبحانه، أى لم يقض ما أمر الله تعالى به الإنسان.

﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤)﴾

فى هذه الآية وما بعدها تعداد للنعم التى أنعم الله بها على الإنسان، وما تقوم عليه حياته من طعام وشراب.

الأمر فى قوله ﴿فَلْيَنظُرِ﴾ للتنبيه على نعم الله وتأملها حتى يدرك فضل الله عليه، وكيف هيأ له أسباب المعاش.

﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥)﴾

جاءت هذه الآية دون عطف؛ لأنها بدل اشتمال من طعامه فى الآية السابقة، لأن الماء سبب فى الإنبات والنبات هو ما يطعم به الإنسان.

وصببنا الماء استعارة لنزول الماء، والاستعارة أقوى لما فيها من نزول الماء بقوة دون انقطاع، فحاجة الناس إلى الماء مستمرة أبداً إما للشراب أو الطعام. والصب يكون من الماء، وأسنده لله تعالى مجازاً لأنه السبب.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا﴾

شق الأرض بالنبات يكون بعد هطول الأمطار، لذا استعمل ثم التى تفيد التراخى، ولم يستعمل الفاء فلم يقل فشققنا الأرض، لأنها تفيد التعقيب، فاستخراج النبات من الأرض بعد المطر يحتاج إلى وقت. ومن ثم كان التعبير بثم أدق.

وعبر بالمصدر ﴿شَقًّا﴾ حتى يكون شق الأرض حقيقة، وليس مجازا. شققناها شقا بديعا لائقا فيخرج منها النبات على هيئة رائعة.

﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩)﴾

يحدث الإنبات بعد شق الأرض مباشرة، ولذا كان التعبير بالفاء، ﴿فَأَنبَتْنَا﴾ التى تفيد الترتيب والتعقيب أوفق. ونكر ﴿حَبًّا﴾ للتكثير، أى حبّا كثير الأنواع، فهى شاملة لكل أنواع الحب من قمح وذرة وشعير ونحو ذلك.

وذكر العنب دون أنواع الفاكهة؛ لما فيه من الغذاء والتلذذ معا، فهو من أصلح الأغذية وأكثرها فائدة. وذكر العنب بعد الحب رغم أنه يدخل فيه، لأنه يجمع بين غذاء الحب وحلاوة الطعم.

والقضب كل ما يؤكل رطبا كالبطيخ والخيار والقت.

﴿ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴾ لفوائد الزيتون والتمر، وهى معروفة للجميع.

﴿ وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٢) ﴾

الحدائق: جمع حديقة، وغلبا أى ذات أشجار متكاثفة متقاربة يدخل بعضها فى بعض فتبهر المشاهد.

يقول الفراء: الغلب: ما غلظ من النخل.

وعطف الفاكهة على ما قبلها مع أن ما قبلها من العنب والنخل داخل فيها، وذلك من عطف العام على الخاص إبرازاً لتميزها واعتدادا لشأن أنواعها الكثيرة التى ذكرت إجمالا.

﴿ وَأَبًّا ﴾ الأب هو المرعى، يقول الزمخشرى فى كشافه: «لأنه يؤب وينتجع». أى يطلبه الناس لمواشيهم.

فكل ما تنبته الأرض ولا يأكله الناس ولا يزرعونه من الكلأ يسمى أبا.

هذه الأصناف الثمانية المذكورة من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل وحدائق وفاكهة وأب، خلقها الله لمتعتكم ومنفعتكم، لجميع الحيوان من إنسان وغير إنسان. مما يدل على قدرة الله سبحانه ورأفته بعباده.

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (٣٣) ﴾

﴿ الصَّاخَّةُ ﴾ الصاكة بشدة صوتها للأذن، وهى كناية عن النفخة الثانية، التى يبعث فيها الأموات من قبورهم. ووصفت النفخة بالصاخة مجازاً؛ لأنها ليست فى حقيقتها صاخة، وإنما يصخ الناس لها، أى يستمعون.

والتعبير بإذا يدل على وقوع النفخة على وجه التوقع واليقين لأن إذا تستعمل فى المتوقع المتيقين، وليس فى المحتمل المتشكك فيه.

وجواب إذا محذوف يدل عليه قوله بعد ذلك ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ حذف اختصارا ولأنه مفهوم من السياق، حيث ينشغل كل إنسان بنفسه.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦)﴾

التعبير بيفرّ أقوى من التعبير بيبتعد، لما فى الفرار من جزع واضطراب.

وتدرج فى الفرار من المهم إلى الأهم.

فالأخ أقل أهمية من الأم والأب، وهم أقل محبة من الزوج والابن، فتدرج من الأسفل إلى الأعلى مرتبة، وهذا شأن البلاغة عند الفصحاء.

وخصهم جميعا بالذكر دون غيرهم من الجيران والأصدقاء؛ لأنهم أخص بالقرابة وأولاهم بالحنان والرأفة، ومع ذلك فهو يعرض عنهم ويفر منهم، لاشتغاله بحال نفسه.

﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾

يوم القيامة عند النفخة الثانية ترى كل أحد شغل بنفسه، وبأهوال ذلك اليوم. مما أغناه من الاهتمام بأمر غيره مهما كان أثيراً لديه فى الدنيا.

وانظر إلى تنكير ﴿شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أى شأن عظيم فادح لا يجعله يفكر إلا فى أمر نفسه.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (٣٩)﴾

﴿مُّسْفِرَةٌ﴾ من أسفر الصباح إذا أضاء، أو مضيئة متهللة، بسبب الخلاص من مطالب الدنيا. ﴿وُجُوهٌ﴾ مبتدأ وجاء نكرة، ولا يجوز الابتداء بالنكرة، وجاز هنا لأنه فى مقام التفصيل بين ما ينتظر المؤمنين وما ينتظر الكافرين. ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ فرحة بما نالته من الثواب العميم والفضل العظيم. ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ بما ينتظرها من خير ورضوان وكرامة.

وعبر باسم الفاعل فى ضاحكة ومستبشرة تنبيها على تحقق وقوعه، وهو ما يقع بالفعل للمؤمنين من أحوال الآخرة، واسم الفاعل يدل على الحال حقيقة وعلى المستقبل مجازا [١].

---

(١) بغية الإيضاح - الصعيدى ١ / ١٦٣.

ثم قابل أحوال المؤمنين بأحوال الكافرين فقال:

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (٤٢) ﴾

وجوه يعلوها غبار وكدر، مما أعد لها من العذاب، ويغشاها سواد وذلة، فوصف أحوال الكفار بصفات جسدية تتمثل فى الغبار والسواد، وصفات نفسية من المذلة والانكسار.

وأشار إليهم إشارة البعيد ﴿أُولَٰئِكَ﴾ لأنهم بعيدون عن رحمة الله.

ووضع بين المبتدأ والخبر ضمير الفصل للدلالة على أنهم الكفرة الفجرة وحدهم دون غيرهم.

* * *

سورة التكوير مكية

(عدد الآيات ٢٩ آية ، نزلت بعد المسد)

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ① ﴾

﴿ الشَّمْسُ ﴾ فاعل لفعل محذوف يفسره الفعل بعدها، أى كورت الشمس كورت. والتكوير من كورت العمامة ولففتها بمعنى لفّ جرمها أو لف ضوئها. يقول ابن عباس: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَت ﴾ أى تساقطتْ. فالتكوير كناية عن تساقطها.

وإسناد التكوير إلى الشمس، بأنْ لفَّ ضوءها المنبسط فى الآفاق يكون إسناداً مجازيا؛ لأن الضوء لا يتصور فيه اللف.

﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ② ﴾

﴿ النُّجُومُ ﴾ التى تظهر فى السماء ليلا، و ﴿ انكَدَرَت ﴾ تناثرت وتساقطت وطمس نورها. يقول الكلبى: تمطر السماء يومئذ نجوما فلا يبقى نجم فى السماء إلا وقع على ظهر الأرض. وإسناد الانكدار إلى النجوم إسناد مجازى؛ لأن النجوم لا تتكدر من تلقاء نفسها؛ بل بفعل الخالق سبحانه.

﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ③ ﴾

سيرت عن وجه الأرض فصارت هباء، أو سيرت فى الهواء فصارت سرابا.

﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ④ ﴾

﴿ الْعِشَارُ ﴾ النوق الحوامل، وهى أعز أموال العرب، لأن أكثر أموالها وعيشها من الإبل. هذه الأموال من الإبل تهمل يوم القيامة، من هول الحساب وفظاعته، تهمل بلا راع، فهم مشغولون بأنفسهم عن غيرهم ولو كانت أعز شئ لديهم.

قال الإمام أبو الليث: هذا على وجه المثل؛ لأن فى القيامة لا تكون ناقة عشراء. أى تمثيل هول القيامة بحال لو كان للرجل ناقة عشراء لعطلها واشتغل بنفسه، وهو أقرب إلى الصواب.

﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ ﴾

﴿ الْوُحُوشُ ﴾ ما توحش من دواب البر ولا يستأنس، والله يحشرها كلها إظهاراً للعدل، فيقتص للجماء [1] من القرناء.

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ ﴾

﴿ سُجِّرَتْ ﴾ صارت نارا متوقدة، وأرسل مالحها على عذبها حتى امتلأت. وفى ذلك وعيد شديد بهول يوم القيامة، وما يشاهده الناس فيه مما يملأ قلوبهم خوفا وجزعا.

﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ ﴾

أى قرنت كل نفس بما يلائمها، المؤمن مع المؤمن، والكافر مع الكافر، والعاصى مع العاصى، ونحو ذلك.

﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾

﴿ الْمَوْءُودَةُ ﴾ الفتاة التى وئدت، أى دفنت حية فى التراب. ﴿ سُئِلَتْ ﴾ توبيخ لمن وأدها، وتفظيع لما فعل. وكان العرب إذا ولدت لأحدهم بنت دفنها حية؛ مخافة الفقر أو العار.

﴿ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ ﴾

أى تنشر صحائف الأعمال للحساب؛ لأنها طويت عند الموت.

﴿ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ ﴾

﴿ كُشِطَتْ ﴾ قلعت وانتزعت من مكانها. كما يكشط الجلد عن الشاة على سبيل الاستعارة.

﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ ﴾

﴿ سُعِّرَتْ ﴾ أوقدت إيقادا شديدا، فتصير نارا تضطرم.

---

(١) الجماء: التى ليس لها قرن.

﴿ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ (١٣) ﴾

أى أدنيت من المتقين ليدخلوها. وهى لا تدنو بنفسها من أحد، ولكن المؤمنين هم الذين يدنون منها. فهو أسلوب قلب، أراد به المبالغة فى إظهار النعيم للمؤمنين حتى إن الجنة تدنو لهم وتقترب منهم.

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) ﴾

أى ما أحضرته عن عمل تستحق به دخول الجنة أو النار. وحذف المفعول للعلم به، والاختصار ومراعاة للفاصلة (١). وتنكير ﴿ نَفْسٌ ﴾ للعموم، أى علمت كل نفس مؤمنة أو كافرة، وأسند الحضور إلى النفس مجازا؛ لأنها تحضر بإذن الله سبحانه. هذه الأفعال كلها التى جاءت من أول السورة حتى الآية الثالثة عشرة، جاءت مقدرة بعد إذا يفسرها مجىء الفعل بعدها، وقدرت تخفيفا؛ لأن ذكرها مرتين لا يحتمله الكلام مادام واضحا، وجاء بعدها ما يفسرها من أفعال.

والأفعال كلها جاءت مبنية للمفعول ما عدا الآية الثانية ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ لأن الآيات المبنية للمجهول مسندة إلى الله سبحانه فهو الفاعل الحقيقى لتكوير الشمس، وتسيير الجبال، وتعطيل العشار، ونحو ذلك.

أما ﴿ النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ فجاءت مبنية للفاعل. مع أنها لا تختلف عن بقية الآيات، لأن الفعل إذا جاء مبنيا للمجهول وقال ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴾ لثقل التلفظ بها على اللسان، فلمراعاة التخفيف جاءت مبنية للمعلوم وليست للمجهول كبقية الآيات.

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) ﴾

قال السمرقندى، أجمع المفسرون أن معنى ﴿ فَلا أُقْسِمُ ﴾: أقسم، و (لا) زائدة، وزيادتها جارية فى كلام العرب. كما فى قوله ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ يعنى أن تسجد.

والخنس: الانقباض والاستخفاء، وهى الكواكب، وسميت ﴿ بِالْخُنَّسِ ﴾ لأنها تخنس بالنهار فتختفى ولا ترى. وهى زحل والمشترى والمريخ والزهرة وعطارد. هذا ما قاله الفراء.

---

(١) حلية اللب المصون – الشيخ الدمنهورى ص ٨٧ ط الحلبى.

﴿ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴾ أى تستتر كما تكنس الظباء فى مغاراتها وسميت جوار؛ لأنها تجرى أفلاكها وترجع حتى تختفى فى ضوء الشمس. أقسم سبحانه بهذه الكواكب لبيان عظمتها وارتفاع رتبتها.

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) ﴾

قال أهل اللغة هى من الأضداد تقول : عسس الليل إذا أقبل، وعسس إذا أدبر [1]، والمراد إذا أدبر بدليل قوله تعالى بعد ذلك.

﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) ﴾

يعتبر بعض اللغويين أن الأضداد تؤدى إلى اللبس؛ لأننا لا نعلم المراد به على وجه اليقين لاحتمالها معنيين متضادين، فعسعس تحتمل الإقبال والإدبار، ولكن ما ورد منه فى القرآن لا يؤدى إلى لبس؛ بل هو غاية فى البيان والظهور، وقوله ﴿ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ أى انتشر وظهر مطابقاً لليل إذا عسعس، فمعنى عسعس عندئذ: أدبر دون لبس أو شك.

والليل لا يدبر والصبح لا ينفس، وإنما الإدبار والتنفس من شيم الأحياء لا الجماد، فهو أسلوب مجازى فيه تشخيص لليل، والنهار الذى عبر عنه القرآن بالصبح. وبين ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ مقابلة تعطى الشمول لحركة الليل وحركة النهار.

أقسم سبحانه بالكواكب والليل والصبح أقسم بما يدل على أن القرآن منزل من السماء بوحى من جبريل، ووصف جبريل بأنه رسول من الله كريم لديه.

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ﴾

ونسب القول إلى جبريل مجازا لأنه قول الله فى الحقيقة، ويدل على أن الرسول هو جبريل، وليس محمداً ﷺ ما جاء بعده من أوصاف:

﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) ﴾

فهو ذو قدرة على ما يكلف به، ومكانته مكينة عند الله سبحانه، وهو مطاع

---

(١) ثلاثة كتب فى الأضداد ص ٧ ، ٩٧ ، ١٦٧ ط بيروت. للأصمعى، والسجستانى، وابن السكيت.

بيْن الملائكة، وأبعد من ذلك فى الرتبة أنه أمين، ولذا عبر بثَم، ظرف مكان للبعيد، وقرئ ثُمَّ حرف عطف للتراخى فى الرتبة؛ لأن ما بعدها أعظم مما قبلها، تعظيما للأمانة وأنها أفضل من صفاته السابقة.

لأنه أمين على وحى الله ورسالاته، معصوم من الخيانة والزلل. وأكد القول بأن واللام الداخلة على الخبر.

﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) ﴾

المراد بصاحبكم محمد ﷺ، وأنه ليس ممن يرمونه به من الجنون، فهذا محض افتراء. وهذه الآية داخلة أيضا فى جواب القسم. والباء فى قوله ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴾ زائدة جاءت لتفيد التوكيد بنفى الجنون عن محمد ﷺ.

وعبد القاهر يتفق مع سيبويه فى أن زيادة الحروف واضحة المغزى فى تقوية الكلام وتوكيده، وهذه الحروف الزائدة لا توضع إلا لغرض بلاغى [١].

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) ﴾

اللام جواب قسم محذوف، أى تالله لقد رأى محمد ﷺ جبريل بالأفق المبين، أى بمطلع الشمس من جهة المشرق، فهو مبين؛ لأن من جهته تظهر وتبين الأشياء.

وأسند ﴿ الْمُبِينِ ﴾ إلى الأفق ووصفه به مجازا؛ لأن الأفق لا تبين به الأشياء، وإنما تظهر وتبين بطلوع الشمس فى الأفق.

﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) ﴾

أى وما محمد على القرآن بمتهم؛ بل هو ثقة فيما أنزل الله، لا يخفى من القرآن شيئا ولا يزيد عليه شيئا.

﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) ﴾

الرجيم: بمعنى مرجوم بالشهب، أى أن هذا القرآن لم يجئ به شيطان فيلقيه على لسان محمد ﷺ.

---

(١) انظر الكتاب لسيبويه ٢ / ٢٠٦، والأسرار لعبد القاهر الجرجانى ٤٥٨، وشرح الرضى للكافية ٢ / ٣٨٤.

وهذه الباء الزائدة (بالأفق، وبضنين، وبقول شيطان) جاءت لزيادة التقوية والتأكيد. «والفراء يجيز الزيادة فى القرآن الكريم، وهو فى ذلك متحرر من قيود المتزمتين الذين يرفضون الزيادة فى القرآن رفضا باتا، ظنا منهم أن فى ذلك تبرئة للقرآن من الزيادة، وتنزيها له عن العبث والمطاعن، ويتكلفون فى تخريج الآيات التى تحمل الزيادة تخريجا بعيدا متكلفا لا يتفق وروح العربية التى نزل بها القرآن»[1].

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) ﴾

الاستفهام للتبكيت والتوبيخ؛ لأنهم ضلوا عن الطريق السوى حين انصرفوا عن القرآن، وادعوا أنه سحر وكهانة. يقول الزمخشرى فى هذه الآية:

«مثل حال من يترك الطريق الواضح اعتسافا منه بحالهم فى ترك القرآن الذى يدعو لصالحهم ويهديهم إلى الخير».

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) ﴾

أى ما القرآن إلا موعظة للخلق أجمعين، وتذكير لهم. وفيه دلالة على القصر، أى أن القرآن ما هو إلا ذكر، وكلمة ﴿ ذِكْرٌ ﴾ تشمل كل ما يذكّره من نفع وفلاح. ونكر كلمة ﴿ ذِكْرٌ ﴾ لأنها عامة شاملة لكل ما يتذكر.

﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) ﴾

لمن شاء منكم الاستقامة أن يستقيم، فمفعول المشيئة محذوف للعلم به، ودل عليه أن يستقيم. وهذه الآية بدل من الآية قبلها، لأن الذين شاءوا الاستقامة وأرادوا الدخول فى الإسلام هم المنتفعون بالذكر، فكأنه لم يوعظ به غيرهم، وإن كانوا موعوظين جميعا.

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٩) ﴾

أى وما تشاءون الاستقامة إلا أن يشاء الله تلك المشيئة بتوفيق منه ولطفه وكرمه. وأضاف ﴿ رَبُّ لِلْعَالَمِينَ ﴾ تشريفا لهم.

---

(١) أثر النحاة فى البحث البلاغى - د. عبد القادر حسين - ص ١٣٦ ط نهضة مصر.

سورة الانفطار مكية

(عدد الآيات ١٩ آية ، نزلت بعد النازعات)

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ (١) ﴾

﴿ انفَطَرَتْ ﴾ انشقت لنزول الملائكة. والفطر: الشق.

وقدم فى الظاهر الفاعل على الفعل، أو المسند إليه على المسند؛ «ليتمكن الخبر فى ذهن السامع؛ لأن فى المبتدأ تشويقا إلى ذكر الخبر» [(١)].

﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ (٢) ﴾

﴿ انتَثَرَتْ ﴾ تساقطت متفرقة.

شبه الكواكب فى انتثارها باللآلئ المتساقطة إذا انفرط عقدها ففيه استعارة مكنية.

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) ﴾

أى فجر بعضها فى بعض فصارت بحرا واحدا. واختلط مالحها بعذبها. فتتغير البحار عن صورتها المعهودة فى الدنيا.

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) ﴾

﴿ بُعْثِرَتْ ﴾ يخرج ما فى جوفها من الأموات، يخرجون أحياء لملاقاة ربهم وحسابهم. وذكر هذه الأشياء الأربعة: انفطار السماء وانتثار الكواكب، وهما يتعلقان بالعلويات، ثم تفجير البحار وبعثرة القبور، وهما يتعلقان بالسفليات.

والمراد بذلك فناء الدنيا وتخريب العالم، فكل شىء يخرج عن موضعه ويصبح شيئا آخر جديدا غير ما عهدناه فى الدنيا.

---

(١) بغية الايضاح ص ١ / ١١٩.

والحكمة فى هذا الترتيب: أن من يريد تخريب دار يبدأ بتخريب السقف، والسماء هى سقف الأرض، والكواكب تبع لها. ثم يشرع فى تخريب البناء، والأرض بمثابة البناء، والبحار فيها وتغطى معظم مساحتها. فيخرب كل ما على وجه الأرض. عمل هندسى رائع فى البناء وفى الهدم على حد سواء.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾

أى تعلم كل نفس فى هذا اليوم ما قدمت من عمل صالح، وما أخرت من عمل فقصرت فى تأخيره.

والتنكير فى ﴿نَفْسٌ﴾ للعموم لتشمل كل أحد بار أو فاجر، مؤمن أو كافر.

وحذف المفعول به من الفعل ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، أى ما قدمته وما أخرته. «للقصد إلى التعميم فى المفعول، والامتناع أن يقصره السامع على ما يذكره إذا ذكره معه دون غيره، وفيه أيضا اختصار للكلام» [1].

قال أحد العلماء: العلم بجميع ذلك كناية عن المجازاة عليه.

والمقصود من الكلام الزجر عن المعصية، والترغيب فى الطاعة.

﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦﴾

عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى الوليد بن المغيرة. وقال مقاتل: نزلت فى ابن الأسد بن كلدة بن أسيد، ضرب النبى ﷺ فلم يعاقبه الله تعالى وأنزل هذه الآية. لذا وصف الله بأنه كريم، كريم عن حكمة، هى حكمة الله فى هداية البشر فيترفق بهم رغم أنهم يستحقون العقاب.

وعبر «بيا» أداة النداء التى تفيد البعد، والإنسان ربه أقرب إليه من حبل الوريد، فكان حقه استعمال أداة النداء التى تفيد القرب وهى «الهمزة» ولكنه استعمل أداة النداء للبعيد؛ لأن الإنسان الكافر العاصى بعيد عن رضا الله سبحانه فنزل بُعد المرتبة القاصية لبعد المكان الحسى. و«أل» فى الإنسان تشمل الكفار جميعا. ﴿مَا غَرَّكَ﴾ ما استفهامية للتوبيخ والاستهجان، وتعجبا من جرأته حتى

---

(١) الايضاح من البغية ١ / ٢٢٢.

عصى ربه، فما الاستفهامية خرجت عن أصل وضعها واستعملت فى معنى آخر وهو التعجب مجازا.

﴿ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ استفهام يفتقر إلى جواب، ولكنه محذوف مفهوم من السياق. أى غره حمقه وجهله ورعونته. وذكر صفة ﴿ الْكَرِيمِ ﴾ دون سواها؛ ليلقن عبده الجواب حتى يقول: غرنى وجهه الكريم.

﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) ﴾

وصف الله سبحانه نفسه بصفة أخرى تدل على كرمه وتقديم نعمه للإنسان، خلقه من نطفة ولم يك شيئا، وأودع فيه حواسه التى يبصربها ويقوى على الحياة، وجعله متناسق الأعضاء فى أحسن تقويم. ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ أى صورة شاء، وما مزيدة، لتفيد عموم الصورة. وتأكيد الكلام وتقويته كما يقول أبو عبيدة فى كتابه مجاز القرآن (١) أى ركبك حاصلا فى أى صورة شاءها. من صور الوالدين أو أحدهما، أو الأقارب أو نحو ذلك.

ولم يعطف هذه الآية على الآية التى قبلها ﴿ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾ لأنها بيان لها فبين الجملتين كمال اتصال، فلا يجوز عطف إحداهما على الأخرى؛ لأن العطف يلزم منه التغاير بين الجملتين. يقول الفراء: «الواو تطرح إذا كانت الجملة الثانية بيانا للجملة الأولى» (٢).

﴿ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) ﴾

﴿ كَلَّا ﴾ أداة زجر وردع عن اغترارهم بكرم الله سبحانه وفيها معنى الإضراب عن الجملة السابقة، وتحقيق غيره.

﴿ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴾ تكذبون بالبعث والحساب، وتعاودون الكذب المرة بعد الأخرى كما يدل عليه التعبير بالفعل المضارع.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) ﴾

---

(١) مجاز القرآن ١ /٢٢٦ - أبو عبيدة - الخانجى.

(٢) معانى القرآن - الفراء ٢ / ٦٨ ، ٦٩ دار الكتب.

أى عليكم ملائكة حفظة تحصى أعمالكم، وقدم الخبر ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ، اهتماما بشأنهم، وأكد وجود الحفظة بإن واللام.

وقد وصف الله الملائكة بأنهم:

﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾

مثنيا عليهم معظما من شأنهم، وفى تعظيمهم تعظيم لأمر الجزاء، وأنه عند الله من جلائل الأعمال. ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ سواء أكان قليلا أم كثيرا.

وقال: يعلمون ولم يقل يكتبون ما تفعلون؟ لأن الحفظة لا تكتب كل شىء يصدر عن العبد؛ لأنهم يتوقفون عند اقتراف العبد لسيئاته؛ رجاء أن يرجع عنها ويستغفر ربه. وفى ذلك إنذار شديد وتهويل عظيم للعصاة، وتبشير وإسعاد للمؤمنين.

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾

ذكر أهل الجنة وهم الأبرار، وأهل النار وهم الفجار، لأن الأشياء تتميز بأضدادها، وبين الآيتين سجع مرصع؛ «لأن ألفاظ الآية مثل ما يقابله فى الآية الأخرى وزنا وتقفية. وهو من أحسن طرق السجع، وذلك لأن قرائنه متساوية فى الشكل والمقدار» (١).

وكل من الآيتين مؤكدة بإن واللام الداخلة على الخبر؛ لتقرير ما دخلت عليه من نعيم أو جحيم. وجاءت نعيم وجحيم على وزن فعيل لإبراز صفة الاستمرار: أى نعيم مقيم، وجحيم دائم. فالتنكير جاء للتفخيم فى الأولى وللتهويل فى جحيم الثانية. وبين الآيتين مقابلة شيئين بشيئين: الأبرار والنعيم. والفجار والجحيم.

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥)﴾

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يقاسون وهجها وحرها.

﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ يوم الجزاء الذى أنكروه.

---

(١) البغية - ٤ / ٨٠ ط الآداب.

ولم تعطف الجملة على ماقبلها، لتقدير سؤال وهو: ما حالهم فيها؟ فقيل ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ وهو ما يسمى عند البلاغيين بشبه كمال الاتصال.

جاء ذلك على تقدير السؤال والجواب كالذى جرت به العادة فيما بين المخلوقات [1]. وفى ذلك تهديد عظيم للعصاة والمنكرين للرسالة وأغراضها. ويؤكد هذا التهديد قوله:

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦)﴾

أى لا يفارقونها أبدا ولا يغيبون عنها طرفة عين.

والباء زائدة لإفادة توكيد امتثالهم ومعاينتهم للنار واستقرارهم فيها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧)﴾

استفهام أراد به تعظيم هول ذلك اليوم، أى شىء مريع فظاعة ذلك اليوم، تعجيبا له لخروجه عما ألف الناس.

﴿ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨)﴾

كرر ذلك تهويلا لأمره، وتعظيما لقدره، وتفخيما لشأنه، وثم تفيد الترقى فى الرتبة، أى: من شىء فظيع إلى شىء أفظع منه.

وكرر بالاسم الظاهر دون ذِكر للضمير، فلم يقل:

وما أدراك ما هو؟ هذا التكرار بالاسم الظاهر توكيد لهوله وفخامته.

﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩)﴾

أى اذكروا يوماً لا تملك فيه نفس لنفس شيئا من النفع أو الضر، وتنكير شيئا لإفادة التقليل، أى لا تملك ولو قليلا لغيرها من النفوس.

﴿وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ وحده، وليس لأحد سواه، فأفاد التخصيص، وإن لم تذكر معه أداة للقصر التى ذكرها البلاغيون.

---

(١) فن البلاغة ص ٢٥٥ - عالم الكتب - المؤلف.

سورة المطففين مكية

(عدد الآيات ٣٦ آية ، نزلت بعد العنكبوت)

هذه السورة تحث على الوفاء بالكيل والميزان، والاحتراز عن البخل والنقصان، والبعد عن التطفيف ولو كان يتعلق بالشىء الحقير، فالعبد يحاسب على هذا التطفيف والنقص كما يحاسب على الذنب الكبير. والله يتوعد جشع التجار وخبث كيلهم وما يصدر عنهم من رذائل، يتوعدهم بألوان من العذاب أيسرها البقاء فى الحفر الضيقة. فذكر القرآن السجين لأهل العصيان، والعليين لأهل الإيمان.

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) ﴾

لما قدم النبى ﷺ المدينة، كان أهلها من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله هذه السورة، فأحسنوا الكيل بعد ذلك.

ويفتتح السورة بالقرع الشديد والعذاب الأليم.

دعا عليهم بالويل والهلاك، والمطففين: الذين يبخسون حقوق الناس فى الكيل أو الميزان. وفى ذلك تهديد وزجر لهم، وكلمة الويل تذكر عند وقوع البلاء.

«والتطفيف» على وزن تفعيل، وهو يأتى للتكثير؛ لأن البخس كان من عادتهم، ويحدث كثيراً منهم، فناسب وزن التفعيل.

﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) ﴾

هذه الآية وصف للمطففين وطريقتهم فى الكيل، فإذا اشتروا من الناس استوفوا حقهم كاملا وزيادة، ولذا كان التعبير بعلى التى تفيد الاستعلاء، أى استعلوا عليهم فركبوهم بما أرهقوهم من زيادة الكيل الذى أخذوه، وهو ليس استعلاء حقيقياً، وإنما هو على سبيل المجاز والاستعارة التبعية. وقدم الجار

والمجرور ﴿ عَلَى النَّاس ﴾ قدمه على الفعل ﴿ يَسْتَوْفُون ﴾ لإفادة التخصيص أى يستوفون على الناس خاصة، أما أنفسهم فيستوفون لها.

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣) ﴾

أى إذا كالوا لهم أو وزنوا لهم، أى باعوا للناس ينقصون الكيل والميزان.

قال الزمخشرى فى الكشاف: كأن المطففين لا يأخذون ما يكال ويوزن إلا بالمكاييل دون الموازين؛ لتمكنهم بالاكتيال من الاستيفاء والسرقة لأنهم يحتالون فى الملء. وإذا أعطوا كالوا أو وزنوا لتمكنهم من البخس فى النوعين جميعا.

﴿ كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ ﴾ أى كالوا لهم أو وزنوا لهم.

فحذفت اللام تخفيفا كما تقول نصحتك ونصحت لك، وفى حذف اللام غرض بلاغى، إذ أنها تفيد الاستحقاق، وهم منعوا المشترين حقوقهم فى الكيل، فكان حذفها مطابقا لتصرفهم.

﴿ أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ (٤) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (٥) ﴾

الآية مسوقة لتهويل ما فعلوه من التطفيف، وتعجيب من حالهم فى الاجتراء عليه، وألا استفهام بمعنى الإنكار.

﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة للبعيد، حيث إنهم فى بعد عن الله سبحانه لا يلوذون برحمته، إذ لا يخطر ببالهم أنهم سيبعثون.

واليوم العظيم هو يوم القيامة وما يحدث فيه من أمور عظام كالبعث والحساب والجنة والنار.

ووصف اليوم بأنه عظيم مجازا، وإنما تقع الأشياء العظيمة فيه.

وعبر بالظن ﴿ أَلا يَظُن ﴾ لأن من يظن البعث والحساب لا يتجاسر على التطفيف فى الكيل والميزان، وإذا كان هذا شأن من يظن، فما بالك بمن يتيقن بالبعث، وهل ثمة مبالغة أعظم من هذه المبالغة؛ تهويلا فى أمر التطفيف واستفظاعا لشأنه.

﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦) ﴾

أى يوم يقوم الناس من قبورهم لأمر رب العالمين، دلالة على عظم ذنب التطفيف ومزيد إثمه وعقابه، والمراد بالناس، هم المطففون؛ لأنهم يقومون متسربلين فى عرقهم إلى أنصاف آذانهم. وكونهم قائمين فى غاية الذلة، ونهاية الخشوع والانكسار.

﴿ كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ (٧) ﴾

﴿ كَلاَّ ﴾ ردع لما كانوا عليه من التطفيف، والغفلة عن البعث والحساب. ﴿ سِجِّينٍ ﴾ فسره قوله تعالى بعد ذلك بأنه كتاب مرقوم مسطور، دونت فيه أعمال الشر الصادرة عن الكفرة والفاسقين ومنهم المطففون. واللام ﴿ لَفِي سِجِّينٍ ﴾ جاءت لإفادة التوكيد.

والسجين مبالغة فى المسجون إذلالا لهم وتحقيرا لشأنهم، فقد وصف كتاب الفجار بالخسة والحقارة على سبيل الاستخفاف بهم.

يقول ابن عباس: السجين هو الأرض السابعة السفلى.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٩) ﴾

استفهام أراد به التهويل من أمره بحيث لا يدرك أهواله أحد، وحذف المسند إليه، أى هو كتاب مرقوم، للعلم به وذكر ما يعود عليه قبله.

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (١١) ﴾

أى هلاك عظيم يوم القيامة لمن كذب بالبعث، وبما جاءت به الرسل، فقد وصف المكذبين بأنهم الذين يكذبون بيوم الدين وهو يوم القيامة. وصفة التكذيب صفة ذم يستحقون عليها العذاب.

﴿ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) ﴾

وهذا اليوم يصدق به المؤمنون الذين صفت قلوبهم، أما المعتدون الآثمون فهم وحدهم الذين يكذبون به، ففى الآية قصر، أى أنها نفت التكذيب عن كل أحد، وأثبتته للمعتدين الآثمين فحسب.

والتنكير فى ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ لعموم الوصف واستفحاله، أى أنه بلغ فى اعتدائه وإثمه مبلغاً كبيرا لا يدرك كنهه.

وأثيم: صيغة مبالغة تدل على أنه غرق فى الإثم والاعتداء حتى أصبح شرا مستطيرا. والمعتدى الأثيم من أمثال: الوليد بن المغيرة، والنضر بن الحرث وغيرهما ممن وقف من الدعوة موقفا معاديا.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٣)﴾

إضافة الآيات لضمير العظمة يفيد تعظيم الآيات التى نزل بها القرآن. والأسطورة: الحديث المزخرف الذى لا أساس له من الصحة. وإنما زخرفها محمد ليقنع الناس بها، قال ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أى هى أساطير وحذف المسند إليه لضيق المقام وإيجاز الكلام.

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع وزجر للمعتدى الأثيم الذى زعم أن ما جاء به محمد ﷺ أساطير وخرافات، وليست وحيا صادقا من لدن ربه سبحانه.

والرين: قتامة تكسو الطبع وتغلفه، فلا يدرى حقيقة الأشياء وكنهها.

ولاشك أن ما علا قلوبهم من رين وفساد هو السبب فى حملهم على القول بأن الآيات هى من الأساطير التى تقال تزجية للفراغ والتسلية.

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾

﴿كَلَّا﴾ ردع للكسب الذى ران على قلوبهم، بخلاف ﴿كَلَّا﴾ فى الآية السابقة فهى ردع عن القول بأن محمدا ﷺ يقول الأساطير. فالزجر فى الآيتين يختلف باختلاف المعنى، وليس فيهما تكرار. وهم محجوبون عن كرامته، ولا يرون رحمة من الله وفضلا. وحجبهم عن كرامة الله سبحانه أمر مؤكد بأكثر من أداة توكيد مما لا يدع فى حجبهم عن الله مجالا للشك فيه [1].

---

(١) يقول الزمخشرى: فى الآية تمثيل، تمثل استخفاف الله بالكافرين وإهانتهم؛ لأن الملوك لا يحجبون عنهم إلا الأدنياء المهانون عندهم. واحتجابهم عنهم تحقيرا لشأنهم وبغضا لأعمالهم.

هذه هى الصفة الأولى التى يلاقيها الجاحدون لرسالة محمد. أما الصفة الثانية فهى:

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ (١٦)﴾

﴿ثُمَّ﴾ تفيد بعد مرتبهم عن الله، فنزل بعد مكانتهم عن الرحيم صاحب الرحمة منزلة البعد الزمانى.

فهم فوق حجبهم عن الله يرتقون إلى درجة أعلى فى العقوبة وأشد فى المهانة، فهم يصلون العذاب الحسى والمعنوى جميعاً، بعد العذاب المعنوى فقط الذى يتمثل فى حجبهم عن الله سبحانه.

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (١٧)﴾

يقال لهم توبيخا وتقريعا من جهة الزبانية، وبنى الفعل للمجهول لأن المقصود التركيز على الفعل لا الفاعل، فيهولهم أمر العذاب، والتعبير باسم الاشارة ﴿هَذَا﴾ لأن العذاب مشاهد أمامهم فلينظروه وليذوقوه وقدم ﴿بِهِ﴾ على تكذبون لرعاية الفاصلة القرآنية.

بعد أن بينت السورة صفات الفجار، شرعت فى ذكر صفات الأبرار.

﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (١٨)﴾

لما ذكر حال الفجار المطففين، أتبعه بذكر حال الأبرار الذين لا يطففون، وكلا أداة زجر وردع، وكررها للتأكيد على إنكارهم ما سبق من ادعاءات وإنكار.

والأبرار هم المطيعون، فهم فى عليين، أى ارتفاع بعد ارتفاع لا غاية له كما يقول الفراء، ولذا عبر بصيغة المبالغة فعيل؛ لأنهم بلغوا فى المكانة العالية مداها. وصحائف حسناتهم وضعتها الملائكة فى أرفع مكانة. وأكد ذلك بإن واللام اللتين دخلتا على الآية تأكيدا لمكانتهم السامية وتعظيما لشأنهم الرفيع.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَابٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (٢١)﴾

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ الاستفهام جاء للتفخيم والتعظيم. و ﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ خبر لمبتدأ

محذوف، أى هو كتاب مرقوم. ولابد فى الحذف من قرينة قائمة حتى لا يسلم الكلام إلى التعقيد.

يقول الخطيب القزوينى من أغراض حذف المسند إليه أن يكون ثمة اعتبار مناسب لا يهدى إلى مثله إلا العقل السليم، والطبع المستقيم ومن ذلك «وما أدراك ما هيه؟ نار حامية»[1]. والكتاب المرقوم هو كتاب أعمالهم ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ يحضرونه ويحفظونه من الضياع.

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (٢٢) ﴾

فإذا كان كتاب الأبرار فى عليين فلابد أن يتبع ذلك أنهم ماكثون مستقرون فى نعيم دائم ومسرة كاملة. و «فى» تفيد الظرفية، والنعيم لا يصلح أن يكون ظرفا؛ لأنه معنى من المعانى، ودخلت عليه «فى» على سبيل المجاز والاستعارة التبعية فى الحرف.

«فإذا قلت زيد فى نعمة» فالنعمة ظرف مجازا، واستعملت كلمة «فى النعمة» المشتملة على زيد كاشتمال الظرف الحقيقى على المظروف كذا فى المغربى»[2].

والمراد أن النعمة أو النعيم لا يصلح ظرفا فى الحقيقة، ولكنه مجاز استعمل كالظرف كقولهم؛ الماء فى الإناء، والكتاب فى الحقيبة.

﴿ عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) ﴾

﴿ الأَرَائِكِ ﴾ الأسرة التى فى الحجال. والأريكة لا تطلق على السرير إلا إذا كان فى حجلة، وهى بيت العروس المزين بالثياب والستور، فينظرون ماشاء لهم النظر من النعيم، أو ينظرون على الكفار وهم يعذبون ويستغيثون. والستور الذين ينظرون من خلالها رقيقة شفافة لا تحجب عنهم شيئا.

﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ (٢٤) ﴾

إذا نظرت إليهم عرفت أنهم من أهل النعمة. وجوههم ناضرة مشرقة صافية

---

(١) الإيضاح تحقيق المؤلف - ط الآداب ص ٦٢ ، ٦٣.

(٢) شروح التلخيص ٢ / ١١٧ - ١١٩ ، خلاصة المعانى للمفتى ٣٨٢ تحقيق المؤلف.

يجرى فيها رواء النعيم. والخطاب لكل أحد يراهم أو يلتفت إليهم. فذلك شىء لا يمكن إخفاؤه. وعبر بلفظة ﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ ﴾ دون كلمة (ترى فى وجوههم) لأن «تعرف» تستعمل فى الأشياء المعنوية الباطنة، ولكن «ترى» تستعمل فى الأشياء الحسية الظاهرة.

﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦) ﴾

الرحيق: أجود الخمر وأكثرها صفاء، مختوم بصيانته، فكل ما يختم يكرم ويصان، وآخرُ طعمه ريح المسك. وهو شىء أريد به التمثيل لإبراز نفاسته وطيب أريجه.

﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ ﴾ تشبيه بليغ حذفت منه الأداة ووجه الشبه. أى ختامه، كالمسك. وعدّ الطيبى للتشبيه سبعة أنواع من حيث الأداة والطرفين ووجه الشبه ترتفع قيمته بحسب ما ذكر فيه وما حذف. وقد عدّ الطيبى التشبيه البليغ أقواها على الإطلاق، لما فيه من ادعاء - أى ادعاء أن المشبه هو عين المشبه به - وتعميم، أى أن مافيه من وجه الشبه يعم جميع الأوصاف» (١).

وفى ذلك أى فى هذا الرحيق يرغب الراغبون ويتنافسون فيه. والأمر فى قوله ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ ﴾ للحض والترغيب على العمل الذى يؤدى إلى هذا النعيم.

﴿ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) ﴾

وصف الرحيق بوصف آخر، أى ينصب عليهم من علوّ. وممتزج بماء عين تجرى من أعلى إلى أسفل، و ﴿ تَسْنِيمٍ ﴾ من سنام البعير، وهو أعلى مكان فى بدنه.

﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (٢٨) ﴾

﴿ عَيْنًا ﴾ منصوبة على الحال، وهى وإن كانت غير مشتقة إلا أنها موصوفة بقوله ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ والباء فى ﴿ بِهَا ﴾ زائدة، أى يشربها المقربون. ونكر ﴿ عَيْنًا ﴾ لمدحها وتعظيمها.

---

(١) كتاب التبيان - الطيبى - ط عالم الكتب ص ٢١٦.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

كان كفار مكة يستهزئون بالمؤمنين فى الدنيا لإيمانهم الصادق وفقرهم المدقع كعمار بن ياسر، وصهيب الرومى، وبلال بن رباح وغيرهم.

وقدم من الذين آمنوا على قوله ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ رعاية للفاصلة القرآنية.

وذكر الفعل مضارعاً ﴿ يَضْحَكُونَ ﴾ مع أن المعنى ماضٍ، وحقق مضيه بقوله ﴿ كَانُوا ﴾ استحضارا لصورة ضحكهم واستهزائهم، والسخرية كانت أشد ألما وأثرا فى نفس المؤمن من العذاب الجسدى الذى يلاقيه.

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

يغمز بعضهم لبعض بأعينهم وأجفانهم وحواجبهم مستخفين بهم متهكمين عليهم.

﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

﴿ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴾ انصرفوا معجبين بما هم فيه من الشرك والمعصية. وفكه صيغة مبالغة على وزن فَعِل، أى أنهم كانوا مسترسلين فى هذا التفكه لا يكفون عنه؛ بل هم مشغوفون به، حتى أصبح دأبهم وعادتهم.

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

إذا رأى الكفار المسلمين فى أى مكان وصفوهم بالضلال؛ لاتباعهم محمدا ﷺ ونبذ دينهم الذى ورثوه عن الآباء والأجداد. وأشاروا إليهم: هؤلاء ضالون غرر بهم محمد. فالإشارة هنا ﴿ هَٰؤُلَاءِ ﴾ تحقيرا من شأن المؤمنين، ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴾ فيها زيادة تأكيد منهم على ضلال المؤمنين، بإنّ واللام.

﴿ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ما كان المشركون على المؤمنين بحفظة عليهم حتى يوجهوهم الوجهة التى يريدونها لهم.

﴿ حَافِظِينَ ﴾ اسم فاعل يدل على الحال وليس الاستقبال. ولكنه أراد أن الكفار

ليسوا حافظين على المؤمنين فى أى وقت سواء أكان ماضيا أو حاضرا أو مستقبلا، أى ينفى عنهم هذه الصفة فى كل الأوقات. وفى ذلك تهكم واستخفاف بالمشركين.

﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤)﴾

فى الآية تشبيه ضمنى، اليوم يضحك المؤمنون من الكفار كما كان الكفار يضحكون منهم فى الدنيا.

﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥)﴾

ينظرون إلى الكفار وهم فى أيأس حالة وأذل مكانة، بينما المؤمنون فى أرغد عيش وأبهى مسرة، جالسين على الأرائك ينظرون إلى الكفار وهم فى ذلة وانكسار. يجددون النظر إليهم الفنية بعد الفنية، لذا كان التعبير بالفعل المضارع ﴿يَنظُرُونَ﴾ أوفى بتصوير هذه الحالة.

﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾

﴿ثُوِّبَ﴾ أثيب، أى هل جوزى الكفار بما كانوا يفعلونه فى الدينا بالمؤمنين؟ وكلمة الثواب تطلق على الخير والشر فى القرآن الكريم.

فالاستفهام جاء للتقرير، وبأنهم عوقبوا على ما بدر منهم من عمل طالح فى دنياهم. وعبر بالفعل الماضى ﴿ثُوِّبَ﴾ مع أن عقوبة الكفار تقع يوم القيامة، تحقيقا لوقوع العقوبة عليهم، وهل ثمة شىء مؤكد أكثر من أنه وقع فى الزمن الماضى وانتهي.

* * *

---

(١) تقع فى الخير كقوله تعالى ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ المائدة ٨٥. وتقع فى الشر كقوله تعالى ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ آل عمران ١٥٣.

سورة الإنشقاق مكية

(عدد الآيات ٢٥ آية ، نزلت بعد الانفطار)

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ ﴾

﴿ السَّمَاءُ ﴾ فاعل لفعل محذوف يفسره ما بعده عند البصريين، ومرفوع بالابتداء عن الكوفيين. والفعل ﴿ إِذَا ﴾ كان محذوفا - وهو رأى البصريين، فقد حذف تخفيفا لعدم اللبس، وعدم التكرار.

وإذا كان متقدما على أنه مبتدأ ثم جاء الفعل بعده ﴿ انشَقَّتْ ﴾ يحمل ضمير المبتدأ، وهو ضمير يعود على السماء كان ذلك تقوية لمعنى الانشقاق؛ لأنه أسند مرتين: مرة باعتباره خبرا، ومرة باعتباره فعلا أسند إلى ضمير المبتدأ، وتكرار الإسناد يقوى الفعل. ولذا كانت الآية أبلغ من قولك «إذا انشقت السماء» لأن الآية تعطى المعنى قوة يعرى منها التعبير الثانى الذى خلا من التقديم [١].

والسماء تنشق ليوم القيامة وأهواله، فتنزل منها الملائكة. و ﴿ إِذَا ﴾ «تأتى للقطع بوقوع الشرط، وتستعمل فى مقام الجزم، ولذلك غلب لفظ الماضى معها على المستقبل، لكونه أقرب إلى القطع بالنظر إلى لفظه» [٢].

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ يقول الفراء الواو زائدة، وأذنت جواب الشرط.

ومعنى ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ انقادت وامتثلت لأمره وطاعته، أى استحقت له. والاستماع ليس من شأن السماء فهى لا تسمع لأنها لا تتصف بحاسة السمع، فالكلام جاء على سبيل الاستعارة التمثيلية. حيث شبه طاعتها وانقيادها بإذنها لربها وإجابته لما يأمر وتحقيقه. ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ جعلت جديرة بالاستماع والانقياد.

---

(١) فن البلاغة ص ١٠٦ عالم الكتب.

(٢) المصباح لابن الناظم - ص ٥٢ - ط مكتبة الآداب.

﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (٣) ﴾

﴿ مُدَّتْ ﴾ اتسعت يوم القيامة لوقوف الخلائق عليها للحساب، وسويت كما يسوى الأديم ويبسط، فلا يبقى عليها بناء ولا جبل إلا دخل فيها.

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (٤) ﴾

لما مدت الأرض وبسطت رمت بما فى جوفها من الموتى، وخلت غاية الخلو حتى لم يبق فى باطنها شىء

وصف الأرض بأنها تلقى ما فى بطنها وتخلو منه ليس على الحقيقة، وإنما هو على المجاز، لأن ذلك من فعل الله سبحانه.

﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٥) ﴾

أى على الأرض السمع والطاعة، شأنها شأن السماء. فعلى كل منهما الانقياد والإذعان وتحقيق أمر الله.

﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (٦) ﴾

(أل) فى الإنسان تفيد جنس الإنسان، ويشمل المؤمن والكافر، والخطاب عام لكل مكلف. و ﴿ كَادِحٌ ﴾ تسعى إلى لقاء ربك فى جهد ومشقة، أو تسعى فى العمل بالدأب والاستمرار. ﴿ فَمُلَاقِيهِ ﴾ ملاق جزاء عملك، والضمير يعود على غير مذكور.

و ﴿ كَادِحٌ ﴾ اسم فاعل يفيد كدحه فى حال حياته، وليس فى المستقبل بعد مماته؛ لأن اسم الفاعل يفيد الحال لا الاستقبال.

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) ﴾

أما لتفصيل ما بعدها من أحوال المؤمنين الذين يُعطون كتبهم بأيمانهم لما فيها من حسنات. والتعبير بالاسم الموصول (من) للتعريف بقضية معلومة وهى ما ينتظره المؤمنين من ثواب عظيم، وتميزهم عن غيرهم من الكافرين [1].

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾

---

(١) معيار النظار الزنجانى ٢ / ٩ ط دار المعارف.

﴿ يُحَاسَبُ ﴾ حسابا سهلا لا مناقشة فيه، إذ غفرت له سيئاته فيعرف ذنوبه ثم يتجاوز عنها. ونكر ﴿ حِسَابًا ﴾ لغرض التقليل والتيسير، وهو ما وضحه الوصف بعده ﴿ يَسِيرًا ﴾.

﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا (٩) ﴾

ينصرف إلى أهله من الزوجة والأولاد، مسرورا بحسابه الهين، مبتهجا بما أوتى من خير وكرامة.

﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) ﴾

وهذا الكافر الذى يؤتى بكتابه من وراء ظهره؛ لأن يده اليمنى مغلولة إلى عنقه ويده اليسرى خلف ظهره، أى يعطى كتابه بشماله، لأن شماله من وراء ظهره. فوراء ظهره كناية عن شماله.

﴿ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) ﴾

أى إذا قرأ كتابه دخل الروع قلبه وقال: يا ثبوراه مناديا نفسه لما اعتراه من مصائب وما ينتظره من عذاب، والثبور: الهلاك. وهو مشتق من المثابرة، وسمى هلاك الآخرة ثبورا لأنه لازم لا يزول. ويدعو ثبورا: أى قارب الهلاك وسيقع فيه لا محالة. وقد حان أوانه.

﴿ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢) ﴾

أى يدخل نار جهنم المستعرة المتأججة. ويتقلب فى جحيمها. ونكر «سعيرا» لإبراز هولها وأنها تصل إلى غاية لا تدرك.

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (١٣) ﴾

أى كان مع أهله فى الدنيا مسرورا؛ لأنه يتبع هواه ويحقق رغبته وشهوته دون أن تخطر الآخرة على باله. و«فى» مستعملة مجازا لأنها دخلت على الأهل، والأهل لا يصلح ظرفا.

﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) ﴾

أى ظن أنه لن يرجع إلى الله، وهذا كناية عن إنكاره البعث و«يحور» كلمة حبشية معناها يرجع. ويقول القرطبى إنها من كلام العرب والرسول ﷺ يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الحور بعد الكور» أى أعوذ بك من الرجوع إلى النقصان بعد الزيادة.

﴿ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً ﴿١٥﴾ ﴾

(بلى) إيجاب بعد نفى (لن يحور) أى، بل ليحورنّ ويبعثن ويجزى على أفعاله عند من لا تخفى عليه خافية، فهو بصير بها، عارف باقترافكم لها.

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ ﴾

(لا) زائدة، جاءت لتأكيد القسم.

والشفق: الحمرة التى تكون بعد غروب الشمس، وهو قول أهل اللغة جميعا.

والشفق مشتق من الشفقة وهى رقة القلب. والشمس عند غروبها تكون رقيقة ضعيفة لاشك.

﴿ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ ﴾

قال أهل اللغة، وما وسق أى وما جمع وحوى فى طياته من النجوم وما ينتشر من الحيوان، وما يتحرك من الهوام، وظلمته تغطى الجبال والبحار والصحارى.

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ ﴾

اتسق: اجتمع وتكامل ضوؤه.

أى أقسم بثلاثة أشياء: الشفق والليل والقمر. أى الظلام والضياء ومابينهما من الشفق. أى أقسم بالأزمنة كلها، فالزمن إما ظلام وإما نور، وإما بين هذا وذاك.

والقسم به يكون عظيما عند من أقسم به.

﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾

يخاطب النفس البشرية جمعاء، أى ستلقون يوم القيامة أحوالا بعد أحوال، كل حال مطابقة لأختها فى الشدة والهول. وهى جواب القسم. و (عن) بمعنى بعد، أى طبقا بعد طبق.

﴿ فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾

الاستفهام للإنكار، وأى مانع لهم يجعلهم لا يؤمنون بمحمد.

﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

وأى مانع يجعلهم لا يسجدون إذا قرئ عليهم القرآن، كناية عن الخضوع والاستكانة؛ لأنهم كانوا يصفقون استهزاء بالقرآن. والعرب أرباب فصاحة وبلاغة، فإذا استمعوا إلى القرآن كان لابد أن يعلموا كونه معجزا، فيلاقونه بالتجلة والاحترام لا بالتصفيق والاستهزاء.

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

وبدلا من أن يقابلوا القرآن بالتعظيم والإكبار يكذبون به وبمن يتلوه عليهم. أى يكذبون القرآن ويكذبون محمدا. وعبر بالاسم الظاهر «الذين كفروا» بدلا من الضمير «هم» فيسجل عليهم كفرهم. «وحذف المفعول به هنا لقصد المبالغة فى التكذيب، ونزل الفعل المتعدى منزلة اللازم لأن القصد إلى نفس الفعل والتركيز عليه، ومن جهة أخرى، لما فى ذلك من الاختصار وظهور القرائن»(١).

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

أى أعلم بما يخفون فى صدورهم من مقت وتكذيب، وأفعل التفضيل «أعلم» تفيد أن الله سبحانه أعلم من كل البشر، - فالبشر مخلوقات لله - بما تجيش به صدورهم وما تضمر قلوبهم.

وجعل ما يضمرون من حقد وغل وبغضاء فى صدورهم بمنزلة الشىء الذى يحفظ فى وعاء لا يخرج منه شيئا على سبيل الاستعارة.

---

(١) المصباح - ابن الناظم ص ٤٧ ط مكتبة الآداب.

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) ﴾

البـشـارة تكـون فـى الأشـيـاء المحـبـوبة لا المـكروهـة، والعـذاب وآلامـه من الأشـيـاء المقـيتـة التـى لا تصـلح لهـا البـشـارة، وإنما يصلح مـعـهـا الإنـذار فـوضع التبـشيـر مـوضع الإنذار على سبيل الاستـعـارة التـهكمية. وفـى ذلك استـهـزاء بهم، وتهكم عليهم بكل ما فيه من لذع وحدة. والأليم: من صيغ المبالغة التى تفيد شدة الألم فـى الآيـة الكريمـة.

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٢٥) ﴾

اسـتـثـاء منقطع من الـذين كـفـروا، والمراد بهم المؤمنون الذين آمنوا إيمـانا صـادقـا وصـفت نفـوسـهم من الكدر والموجـدة، واتسـمت أعـمـالهم بالصـلاح، كـان جزاؤهم أجراً عظيما، متصلا لا ينقطع.

«وقـدم المسند - وهـوالجـار والمجـرور (لـهم) - على المسند إليـه وهـو (أجـر) للاخـتـصـاص، أى اخـتـصـاص المسند إليـه بالمسند»[1]، أى أن الأجــر للـذين آمنوا وعـملوا الصـالحـات وحـدهم دون غـيـرهم من الكفـار الـذين سـبق ذكـرهم فـى الآية السابقة. وتنكير «أجر» لتعظيم أجرهم ورفعته عن الله تعالى.

* * *

(١) المصباح ص ٣٨.

سورة البـروج مكيـة

(عدد الآيات ٢٢ آية ، نزلت بعد الشمس)

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) ﴾

﴿ الْبُرُوجِ ﴾ معناها القصور، وهى منازل الكواكب، وعددها اثنا عشر برجا، الحمل والثور والجوزاء، والسرطان والأسد والسنبلة، والميزان والعقرب والقوس، والجدى والدلو والحوت.

أو ﴿ الْبُرُوجِ ﴾: منازل القمر، وحسن القسم بها لما فى سير القمر وحركته من الآثار العجيبة. وإطلاق البروج على هذه الكواكب مبنى على تشبيهها بالقصور من حيث إن القمر ينزل فيها.

﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) ﴾

﴿ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴾ هو يوم القيامة، وقد أجمع المفسرون على ذلك.

وروى ابن عباس أن المشهود هو يوم القيامة، والشاهد هو الجمع الذين يحضرون فيه، ولا حضور أعظم من ذلك. وأقسم الله باليوم الموعود وهو يوم القيامة تنبيها على قدره وعظم شأنه.

ونكر ﴿ شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴾ لإبهام وصفه حتى تذهب فيه النفس كل مذهب ولا تستطيع أن تحده أو تقف على أوصافه. أو كما يقول ابن الناظم فى مثل هذا القول: «لأن فى شأنه ارتفاعاً إلى حد يوهم أنه لا يمكن أن يعرف» [1] .

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) ﴾

هذه الآية وقعت جواب قسم، تقديره لقد قتل أصحاب الأخدود، والقتل كناية

---

(١) المصباح ص ٢٥ ط مكتبة الآداب.

عن اللعن؛ لأنه من لوازمه. والمراد أن كفار قريش ملعونون كما لعن ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾. و ﴿الْأُخْدُودِ﴾: شق طويل عظيم فى الأرض كالخندق.

و﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ ثلاثة هم: أنطيانوس الرومى بالشام، وبختنصر بفارس، وذو نواس بنجران.

قالوا فى ﴿أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ أقوالا كثيرة مضمونها: أن ناسا من الكفار صنعوا أخدودا فى الأرض وأشعلوه نارا وعرضوا المؤمنين عليها، فمن رجع عن دينه تركوه، ومن أصر على الإيمان أحرقوه. وأصحاب الأخدود هم الذين أحرقوا المؤمنين.

﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (٥)﴾

بدل اشتمال من الأخدود؛ لأن الأخدود مشتمل على النيران و﴿ذَاتِ الْوَقُودِ﴾ وصف للنيران بأنها مشتعلة عظيمة تسمع لها طأطأة. ويرتفع لهيبها بقدر ما وضعوا فى الأخدود من حطب. ولم تعطف هذه الجملة على ما قبلها لكمال الاتصال.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦)﴾

أى لعنوا حين أحدقوا بالنيران وتسلوا بإحراقها للمؤمنين. وعلى تفيد الاستعلاء، وليس حقيقة أنهم استعلوا على النار ووقفوا عليهم بأرجلهم. وإنما هو تعبير مجازى أراد به أنهم كانوا يطلون عليها مشرفين على ما يصدر عنها من لهب عظيم. والتعبير بلفظ ﴿قُعُودٌ﴾ بدلا من شهود؛ لما فى لفظة القعود من إطالة الجلسة والتسلى بالمشاهدة؛ لأن المرء يلجئ إلى القعود حين لم يكن على عجلة من أمره، ويود الاستزادة من الحديث أو المشاهدة.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧)﴾

قدم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ للاهتمام بأمر أفعالهم القبيحة المنكرة للمؤمنين. و ﴿شُهُودٌ﴾ كناية عن أنهم لم تأخذهم بالمؤمنين رأفة، وإنما كانوا فى قسوة مريعة حيث كانوا يتلذذون بإحراقهم. وقدّم أيضا ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم كانوا هم الغرض من المشاهدة.

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ﴾

أى ما أنكروا عليهم إلا إيمانهم، وهو من ألوان البديع التى تسمى بتأكيد المدح بما يشبه الذم. ووجه التأكيد أنه نفى عنهم أولا النقمة ﴿وَمَا نَقَمُوا﴾ فهى صفة مدح. فإذا جاء الاستثناء ظن أنه يستثنى من المدح صفة ذم، ولكن تأتى صفة مدح أخرى غير متوقعة وهى الإيمان ومن ثم تأكد المدح[1] فما أنكروا عليهم ذنبا إلا إيمانهم. وعبر بالمضارع ﴿إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا﴾ مع أنهم آمنوا فى الماضى، لأنهم مستمرون فى إيمانهم مداومون عليه، لا يفتر عنهم لحظة.

﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ ﴾

وصف الله ذاته بصفات تدل على عظمته وفخامته، ومن كان كذلك كان مستحقا للعبادة جديرا بها. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أى شهيد على كل ما تفعلون من إحراق للمؤمنين، وشهيد على المؤمنين حين يحرقون. وشهيد صيغة مبالغة، أى لا يفوته شىء ولا يخفى عنه شىء. وفى ذلك وعيد شديد لأصحاب الأخدود. ووعد خير للمؤمنين.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ
وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ﴾

المراد بالذين فتنوا كل من فعل ذلك، فاللفظ عام وليس خاصا بأصحاب الأخدود.

و﴿فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ : أى امتحنوهم حين عرضوهم على النار وأحرقوهم ولم يتوبوا؛ لأنهم لو تابوا لخرجوا من هذا الوعيد بأن لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق. وعذاب جهنم بسبب كفرهم، وعذاب الحريق بسبب أنهم أحرقوا المؤمنين.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ قدم الخبر وهو الجار والمجرو

---

(١) انظر الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة - محمد بن على الجرجانى - ص ٢٨٤ ط نهضة مصر.

لأهميتهم واستحقاقهم للعذاب، فلما استحقوا هذا العذاب قدم ما يدل عليهم اهتماما بهم وأنهم جديرون بالعذاب.

وتكرار العذاب مرة بأنه عذاب جهنم وأخرى بأنه عذاب الحريق، فهما عذابان مختلفان. وأحدها ليس كالآخر، لذا جاء العطف الذى يفيد المغايرة بينهما.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11) ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ عام يشمل المؤمنين جميعا وعملوا عملا صالحا، استحقوا بسبب إيمانهم جنات تجرى من تحتها الأنهار، وهذا هو الفوز الذى لا يعدله فوز.

«وعرف المسند إليه بالموصولية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إيماء إلى وجه بناء الخبر، حيث جعل ذريعة إلى التعريض بالتعظيم لشأن الخبر» (1).

و ﴿ لَهُمْ جَنَّاتٌ ﴾ قدم الخبر لنفس العلة البلاغية المذكورة فى الآية السابقة ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾.

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ والأنهار لا تجرى، وإنما الذى يجرى هو الماء فى الأنهار؛ والنهر هو الحفرة المتسعة المستطيلة التى يتدفق فيها الماء. فإسناد تجرى إلى الأنهار مجاز عقلى علاقته المكانية.

﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾ ذلك إشارة محسوسة للجنات البعيدة المكانة الرفيعة المنزلة، فقال «ذلك» بلام البعد ولم يقل «ذاك» وعرف الفوز الكبير «بأل» لإفادة التعظيم والتضخيم.

والفوز مصدر وعبر به مبالغة فى فوزهم.

و ﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الجنات فكان حق الكلام أن يقول «تلك» وإنما عدل إلى ﴿ ذَلِكَ ﴾؛ لأن المراد إخبار الله تعالى بحصول هذه الجنات، وهذا الإخبار يعود عليه ﴿ ذَلِكَ ﴾ وليس «تلك» ويدل هذا الإخبار أيضا على كونه راضيا عن هذا الجزاء.

---

(1) بغية الإيضاح جـ 1 / 88 عبد المتعال الصعيدى مكتبة الآداب.

﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) ﴾

البطش: هو الأخذ بشدة وعنف.

والآية توحى بشدة الوعيد لمن عصى الله، فعقابه للظلمة والجبابرة أليم شديد، ويخبر النبى ﷺ بذلك ليطمئن على أن من كفر برسالته سيأخذه أخذ عزيز مقتدر، وأكد ذلك بأكثر من أداة من أدوات التوكيد وهى إن واللام. ونكر «شديد» وجاء بها القرآن على صيغة المبالغة بيانا لعقوبتهم الشديدة الدامغة.

﴿ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣) ﴾

ضمير الفعل «هو» بين المسند إليه والمسند يفيد القصر؛ أى أنه وحده الذى يبدئ العذاب للكفار ويعيده مرة أخرى بعد أن تتفحم أجسادهم فيخلقها من جديد ويعاود تعذيبها. والتعبير بالفعل المضارع يبدئ ويعيد، لاستحضار صورة البدء والإعادة، والإحساس بمشاهدتها.

﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ﴾

عرف المسند «الغفور الودود» لتخصيصه بالمسند إليه [1]. أى أنه وحده الغفور المتودد لعباده بقبول التوبة والإحسان إليهم.

﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٦) ﴾

و﴿ الْعَرْشِ ﴾: السرير، والله منزه عن ذلك. وإنما هو كناية عن الملك والسلطان.

و﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾ صفتان للمدح، والمجيد صفة تجمع بين كرم الذات، وكرم الفعال. ومجيد أكثر مبالغة من ماجد، ولذا عبر بصيغة المبالغة ليدل على كمال عطائه وشدة كرمه.

و﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ جاء بصيغة المبالغة ﴿ فَعَّالٌ ﴾ وهى أبلغ من «فاعل لما يريد»، أى أنه إذا أراد فَعل دون أن يثنى عزمه شىء أو أحد.

---

(١) البغية ١ / ٨٢.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (١٧) ﴾

الاستفهام جاء للتقرير، أى: قد أتاك.

وهذه الجملة جاءت مؤكدة لما تقدم من شدة بطشه وكونه فعالا لما يريد. وفى حديث الجنود وقصة فرعون وثمود تسلية لرسول الله ﷺ وتسرية عنه.

قد أتاك ما فعلوا من التكذيب وما فعل بهم من التعذيب، فذكر قومك يا محمد بأن سيصيبهم مثل ما أصاب فرعون وقومه.

﴿ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (١٨) ﴾

قدم ذكر فرعون مع أن ثمود أقدم - وهم قوم صالح - لأن قصة فرعون مع موسى كانت أشهر عند قريش من صالح مع ثمود، ولرعاية الفاصلة من جهة أخرى.

وجعل من قصة فرعون وقومه، ومن قصة صالح وقومه أنموذجا لبيان حال الكافرين مع من أرسل إليهم من رسل، ولكنه أراد بيان حال المؤمنين مع الكفار فى جميع الأزمنة وليس فى زمن قوم صالح أو قوم فرعون فحسب، ولذا قال:

﴿ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (١٩) ﴾

أى ليس هذا حال فريق من الكفار دون فريق، وإنما هو أمر شائع فيهم جميعا لا يتخلف عنه أحد من الكفار فى أى زمن من الأزمان.

و﴿ فِي تَكْذِيبٍ ﴾ ﴿ فِي ﴾ تفيد الظرفية، والتكذيب لا يصلح أن يكون ظرفا؛ لأنه شىء معنوى، فهو تعبير مجازى.

﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) ﴾

الإحاطة بالشىء: حصره من جميع جوانبه بحيث لا يستطيع أن يتفلّت منه، وهو تمثيل لتجسيم أحوال الكافرين بأنهم لا يمكنهم التخلص أو الفرار من حكم الله عليهم. فالله محيط بهم كإحاطة السوار بالمعصم، جل سبحانه.

﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (٢٢) ﴾

أى أن القرآن متناهٍ فى الشرف والكرم والبركة، ولذا «نكر» قرآن مجيد دلالة على تفخيمه وتعظيمه، ووصفه هذا الوصف بأنه «مجيد» وهى أدل على هذه الصفة من ماجد، لما فيها من صيغة المبالغة. فهو قرآن شريف عالى الطبقة بين بقية الكتب السماوية. مصون من التغيير والتبديل.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ لا يمسه إلا المطهرون، ومصون من وصول الشياطين إليه. محفوظ عند الله لا يطلع عليه إلا الملائكة.

وقدم الخبر المسند وهو الجار والمجرور ﴿فِى لَوْحٍ﴾ على المسند إليه وهو المبتدأ ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ لأن المسند مختص بالمسند إليه، أى أن اللوح مختص بحفظ القرآن الكريم [١].

* * *

(١) المصباح - ابن الناظم ص ٣٨ - ط مكتبة الآداب.

سورة الطارق مكية

(عدد الآيات ١٧ آية، نزلت بعد البلد)

﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ ﴾

أقسم سبحانه بالسماء، لعظمها وما فيها من عجائب.

والطارق : النجم ؛ لأنه يطلع بالليل، وما أتاك ليلا فهو طارق، قاله الفراء والزجاج والمبرد ؛ فالله أقسم بالسماء وبالنجم دلالة على قدرته وحكمته.

و« أل » فى الطارق تفيد الجنس حتى يشمل كل جنس النجم.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ ﴾

استفهام يفيد فخامة أمر الطارق ورفعة قدره .

﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ : جواب عن السؤال السابق ما أدراك ما هو ؟ ولذا جاء بدون عطف، وحذف المسند إليه لتعيّنه، أى : هو النجم الثاقب.

والثاقب : المتوهج، وسمى ثاقبا ؛ لأنه يثقب بنوره ظلام الليل.

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ ﴾

الآية وقعت جوابا للقسم، أى ما كل نفس طيبة، أو شريرة إلا وعليها حافظ مهيمن وهو الله سبحانه وتعالى « فالله خير حافظا » والآية فيها قصر أداته إن النافية ولما لأنها بمعنى إلا.

وفى ذلك ترغيب للعمل الطيب وتغيير من العمل السيىء.

يقول زكريا الأنصارى : الآية جواب قسم، و « ما » مخففة مزيدة و « إن » نافية ولما بالتشديد بمعنى إلا [1].

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ ﴾

---

(١) فتح الرحمن ص ٦٠٦ ط بيروت .

فلينظر الإنسان نظر فكر حتى يعرف أن الذى بدأ خلقه من نطفة قادر على بعثه وإعادته.

﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ ﴾

« خلق من ماء » تفسير وإجابة عن السؤال مم خلق ؟ فلذا جاء بدون واو، حتى لا تفصل الواو بين السؤال والإجابة، أو بين التفسير والمفسر. «لأن المقصود بالبيان والتفسير هو التوضيح وانجلاء الخفاء الذى يقتضى المقام إزالته» (١).

« والماء الدافق » المنى الذى يتدفق عند الجماع. ودافق بمعنى مدفوق، والماء يكون مدفوقا وليس دافقا، والدافق هو صاحب الماء.

فهو مجاز عقلى علاقته اسم المفعول، كما تقول عيشة راضية، وهى مرضية.

يقول الآمدى : جاء فاعل بمعنى مفعول قالوا : عيشة راضية بمعنى مرضية، ولمح باصر وإنما هو مبصر فيه وأشباه لذلك كثيرة معروفة، والتعبير بدافق بدلا من مدفوق، أى باسم الفاعل بدلا من اسم المفعول أغرب وأظرف » (٢) .

وجعل ماء الرجل وماء المرأة واحدا، «من ماء» لامتزاجهما فلم يقل خلق من ماءين .

والصلب : ظهر الرجل، وترائب المرأة : ضلوع صدرها وعظام نحرها، ولذا يتحمل الوالد أسباب معيشة الولد، وتشتد رقة الأم ومحبتها للولد. فالظهر قوى، والصدر رحيم رقيق، فهو مجمع المحبة، والظهر عماد القوة .

﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ ﴾

أى أن الله قادر على إعادته بالبعث بعد مماته، وأكد قدرته على الإعادة بإن واللام .

وقدم « على رجعه » لبيان أن أمر رجعه سهل ميسور عليه، ولأهميته للمنكرين.

---

(١) شرح عقود الجمان - السيوطى - ص ٦١ ط الحلبى .

(٢) الموازنة ١ / ٢١٦ ط - دار المعارف .

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝ ﴾

تبلى : تختبر، والسرائر : جمع سر، كناية عن القلوب حيث تختفى فيها أسرار العباد، والقلوب مكمن الأسرار، فتعرض الأعمال وتنشر الصحائف .

﴿ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝ ﴾

« من قوة » « من » زائدة جاءت لتأكيد النفى، أى ليس له قوة على الإطلاق فى ذلك اليوم، ولا أحد من الأنصار. والناصر : الحليف، والتنكير فيها للتقليل

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ ﴾

قال أهل اللغة : الرجع : المطر، يقول الزجاج وسمى المطر رجعا ؛ لأنه يجئ ويرجع ويتكرر، فهو مأخوذ من ترجيع الصوت، وهو إعادته .

يقول عبد القاهر الجرجانى : قيل للسماء ذات الرجع ؛ لأن شمسها وقمرها يغيب ويطلع وبعض نجومها يرجع .

﴿ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝ ﴾

وذكر ما يقابل السماء وهو الأرض.

قال أبو عبيدة والفراء : ذات الصدع، أى تنشق وتتصدع بالنبات فالسماء تسقط المطر، والأرض ترتفع بالنبات، والمطر يحيى الأرض فتخضر بالنبات، فيالها من مقابلة حسنة .

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝ ﴾

أى أن القرآن نزل بالجد ولم ينزل باللعب، فهو فاصل ببيانه بين الحق والباطل، وأكد ذلك بوجهين .

الأول: أكد لفظه بأنه قول فاصل بين الحق والباطل بأداتى التوكيد : إن واللام .

والثانى : أكده مرة أخرى حين قال وما هو بالهزل، كأنه قال إنه قول جد، ثم قال هو جد لا هزل فيه .

وبهذا سلب عن القرآن الكريم كل صفة تمتّ إلى الهزل أو اللعب أو التسلية ونحو ذلك .

والباء فى قوله « بالهزل » زائدة جاءت لتأكيد نفى الهزل عن القرآن .

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) ﴾

يقول الزجاج : إنهم يخاتلون النبى ﷺ، ويظهرون ما هم على خلافه .

وعبر بالمصدر « كيدًا » لتأكيد مخاتلتهم، كأنها مصنوعة ومكونة من الكيد بكل تفاصيلها ونسجها .

« وأكيد كيدا » فليس من صفات الله سبحانه أن يكيد لأحد، وإنما هى من باب الاستدراج، وجاء على سبيل المشاكلة أى تحدث القرآن بأسلوبهم، فعندما قال « يكيدون كيدا » عبر بمثل ما وصفهم به فقال وأكيد كيدا .

والمشاكلة من المحسنات المعنوية تجرى فى الكلام لتحسين الأسلوب العربى .

وهو من الجزاء على الفعل بمثل لفظه كقوله: (وجزاء سيئة سيئة مثلها) [1]

وربما كان أول من أطلق على هذا النوع اسم المشاكلة أبو على الفارسى العالم النحوى [2] .

﴿ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾

فلا تستعجل عليهم يا محمد بالعذاب، وارفق بهم، فلا مفر من انتقامى منهم. و « رويداً » مصدر مؤكد لفعل محذوف : أى أمهلهم إمهالا رويدا أى قريبا. وكرر الأمر، « مهل وأمهل » للتوكيد، وخالف بين اللفظين، فالأول مطلق، والثانى مقيد برويدا. وفى فتح الرحمن : خولف بين لفظيهما طلبا للخفة [3] .

* * *

(١) الصاحبى - ابن فارس ١٩٦ ط المؤيد .

(٢) الحجة - أبو على الفارسى ١ / ٢٢٦ .

(٣) فتح الرحمن - ابو زكريا الأنصارى ص ١٠٦ .

سورة الأعلى مكية

(عدد الآيات ١٩ نزلت بعد التكوير)

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۝١ ﴾

التسبيح يفيد تنزيه الله سبحانه عن كل ما لا يليق بجلاله، والمراد : نزِّه اسم ربك أن يسمى به أحد سواه فلا تذكره إلا وأنت خاشع معظِّم له .

والأعلى : صفة للرب، فهو - جل جلاله - عالى المكانة على الخلق جميعا، لا يحيط به وصف الواصفين، فهى صفة كاشفة مبّينة لقدر الله .

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ ﴾

وصف آخر للرب بأنه خالق الإنسان مستويا فى قامته. وعبر بالاسم الموصول تفخيما لشأن الله وجلاله .

و« خلق فسوى » أى خلقه مستويا فى آن واحد، فلم ينزل من بطن أمه غير مستوى الخلقة، ثم سواه بعد ذلك، وإنما خلقه وسواه، معاً، فخرج إلى الحياة وهو بصفة الاستواء والاستقامة .

هذه الآية وما تشمله من صفة الله سبحانه تفيد المدح لذاته والتعجيب من خلق الإنسان وتسوية أعضائه .

﴿ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾

صفة أخرى للرب، وفيها طىّ لمفعولات لم تذكر، أى قدر خلق الإنسان من ذكر وأنثى، وهدى الذكر إلى إتيان الأنثى وكيف يأتيها، أو هداه لطريق الخير والشر، فحذف المفعول لعدم تعيّن فرد من أفراده بل كل ما يصدق عليه التقدير والهداية، فيفيد العموم والشمول دون التعيين والخصوص .

﴿ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ۝٥ ﴾

صفة أخرى لله سبحانه، أخرج النبات من بطن الأرض وجعله موجودا بعد

أن كان معدوما، وظاهرا بعد أن كان مختفيا، والمرعى مكان الرعى، والمراد به النبات مجازا لعلاقة المكانية .

يقول الخطيب القزوينى فى كتابه الإيضاح. أما الغرض من الوصف فلكونه مفسرا للموصوف كاشفا عن معناه، مبينا له تمام الإبانة [1] .

جعله غثاء : أى هشيما جافا كالغثاء الذى يحمله السيل من رغوة على تشبيه النبات بالهشيم، والأحوى : لون يميل إلى السواد مثل صدأ الحديد، أى اسودَّ النبات بعد اخضرار .

هذه الصفات المتعددة المذكورة فى السورة تفيد الكشف عن قدرة الله وعظمته، وأن هذه الصفات يتميز بها الخالق عن المخلوق، فليس فى مقدور الإنسان أن يخلق ويسوِّى الروح وتتآلف مع الجسد، أو يسوى أخلاقه وخصاله إن قدر على تسوية جسده وأعضائه. وليس فى مقدور العلم أن يقدِّر مستقبل الإنسان ويهديه إلى الوصول إليها. وليس فى استطاعة الإنسان أن يخرج النبات من جوف الأرض إلا بمشيئة الله سبحانه - وأن يمنع جفاف النبات ويبسه إن أراد الله جفافه ويبسه. فكل هذه الأشياء من صفات الله وحده، وهو القادر أن يبقيها أو يعدمها، فهو على كل شىء قدير، والإنسان مهما عظم فهو غير قادر على فعل شىء دون مشيئة الله سبحانه.

والتعبير بالفاء فى قوله ﴿ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ ﴾ لم يأت اعتباطًا ؛ وإنما أتى ليدل على أن خضرة النبات يعقبها مباشرة - دون فاصل زمنى - صيرورته هشيما يابسا بعد أن كان أخضر يانعا. فالفاء تدل على الترتيب والتعقيب .

وفى ذلك أيضا إشارة إلى أن فترة الحياة الدنيا الخضرة يعقبها فناء وسكون، وأن الأحوال تتبدل سراعا دون مهلة أو ترصد .

ثم ينتقل القرآن إلى ذكر الهداية الخاصة برسول الله ﷺ بعد أن ذكر الهداية العامة الشاملة للكون من إنسان ونبات فيقول :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) ﴾

---

(١) الإيضاح ص ٧٩ .

أى «فلا تنسى» مما تقرؤه شيئًا من الأشياء إلا ما شاء الله أن تنساه .

فالمفعول به حذف للعموم، أى لا تنسى القرآن أو الآيات .

وقال «فلا تنسى» بزيادة الألف مراعاة للفاصلة مع الآيات السابقة .

وفى ذلك وعد كريم من الله باستمرار الوحى وتلقى محمد ﷺ للقرآن .

﴿ إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾

الاستثناء منقطع بمعنى لكن، لكن تنسى ما نسخه الله سبحانه، والنسخ إنساء، والله يقول أيضا : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ الكهف ٢٤ .

﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (٧) ﴾

أى يعلم الظاهر والباطن، والإعلان والسر، أى يعلم كل شىء يدور فى الكون، وهذه فائدة الطباق، أو ذكر الضدين ؛ لأنك إذا علمت الضدين فقد علمت كل ما يحيط بهما، فتدخل فيه ظاهرة العموم .

وقيل المراد بالجهر إعلان الزكاة، وما يخفى المراد به : إخفاء الصدقة ؛ لأن الزكاة فريضة وعدم إعلانها يؤدى إلى التهمة، والصدقة ليست فريضة فيحسن إخفاؤها .

﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (٨) ﴾

ضمّن نيسرك معنى نوفقك، واليسرى : المراد بها لعمل اليسرى ؛ لأن اليسرى وصف للعمل الميسر فى الدين والدنيا، ونهونه عليك حتى تحفظه وتعمل به. وجاء الحذف اختصارًا وإيجازًا، وعبر بنون العظمة « نيسرك » لأن عظمة المعطى دليل على عظمة العطاء .

﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (٩) ﴾

الأمر فى « ذكره » للإرشاد والنصح والتنبيه، والفعل وإنْ تقدَّمَ إلا أن معناه التأخير، فهو جواب شرط لئن، والتقدير : إن نفعت الذكرى فذكر. وقدم الجواب مع أن موضعه التأخير للاهتمام بأمره .

أو أن جواب الشرط محذوف دل عليه المتقدم، وجاء الحذف للعلم بالمحذوف وتعيّنه وعدم التباسه بغيره .

وعبر « بإن » لأنها تفيد الشك، والذكرى قَلّ أن تنفع، فكان دخول إن عليها دون « إذا » أمرا لازما .

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾

يخشى فاعله ضمير يعود على مَن، وتكرار إسناده دليل على تقوية الفعل والعمل به، فمرة أسند الفعل إلى ضمير الفاعل الذى يعود على مَن، ومرة أسند إلى « مَن » باعتباره خبرا .

والمفعول به محذوف لتعينه والعلم به، أى سيذكر من يخشاه، أى يخشى الله، وحذف المفعول به للإبقاء على الفاصلة المختومة بالألف حتى تسير السورة كلها على منوال واحد وحرف واحد وهو الألف .

﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿١١﴾ ﴾

يتجنب الذكر ويبعد عنها الأشقى من الكفار، لإصراره على الكفر، وانهماكه فى معاصيه، وتوغله فى عداوة النبى ﷺ .

والأشقى: المبالغ فى معاصيه. وبين ﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ وبين ﴿ وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴾ مقابلة اثنين باثنين، والمقابلة فيها تطابق بين الكلام من نواحٍ مختلفة فى المعنى. ووصف الأشقى بأنه:

﴿ الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾

ليؤكد أن مصيره العذاب الأكبر، يقول النسفى فى تفسيره (١) يدخل فى نار جهنم، والصغرى نار الدنيا » ولذا كان التعبير بأفعل التفضيل لبيان المفاضلة بين نوعين من العذاب : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، والبون شاسع .

وعَّرف النار « بأل » لتفخيمها وشدة حرارتها، ومدى إيلامها .

﴿ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾

لا يموت فيها فيستريح من العذاب، ولا يحيى حياة ينتفع بها، فلا حياة ولا موت وإنما فى قلق دائم وتوتر مستمر أشد وقعا من العذاب نفسه، وذلك كقوله تعالى ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ فاطر ٣٦ .

---

(١) تفسير النسفى ٢/ ٣٥٠ .

والطبرى يقول: العرب إذا أرادوا وصف زجل بوقوعه فى شدة شديدة، قالوا: لا هو حىّ ولا هو ميت، فخاطبهم الله بما يعرفون، والتردد بين الحياة والموت أفظع من صلّى النار الكبرى. واستعمل ثم التى تفيد الترتيب والتراخى، وذلك للمدى البعيد بين صلّى النار الكبرى والتردد بين الحياة والموت، فالثانية أشد وأقسى، لأنها تتعلق بالعذاب المعنوى لا الحسى .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (١٤) ﴾

أى نجا من المكاره، وتطهر من الكفر واتعظ بالذكرى .

ودخول (قد) على الفعل الماضى تفيد التأكيد، والفعل الماضى يفيد تحقق الوقوع. أى أكد وقوع الفلاح على كل من يتزكى ويتطهر .

« ومَن » لفظها مفرد، ومعناها متعدد، فهى تقع على كل شخص يتزكى وليس على فرد واحد .

﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (١٥) ﴾

ذكر اسم ربه خوفا وإجلالاً، ذكره بلسانه وقلبه، « فصلى » فأقام الصلوات الخمس، فالحذف جاء إيجازا واختصارا .

وإضافة اسم الرب إلى ضمير « من تزكى » فى الآية السابقة، تشريفا للمضاف إليه .

﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) ﴾

بل تفيد الإضراب عن الآيات السابقة التى يتجلى فيها الفلاح والطهر والصلاة، أى لا تفعلون ذلك، بل تؤثرون الحياة الفانية الرخيصة .

وصف الحياة بالدنيا، للكشف عن وضاعتها وخستها، وعدم جدوى التمسك بها، والارتماء فى أحضانها، وعبر بتؤثرون بدلا من تختارون ؛ لأنها أوضح فى إفادة المعنى وأقوى فى التأثير، لما فيها من معنى التفصيل أكثر من الاختيار .

﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٧) ﴾

الواو للحال، أى حال الآخرة وهى الجنة أفضل وأدوم من حال العاجلة وهى الدنيا، وحذف المتعلق بالفعل، ليفيد الشمول أى : أبقى من كل شىء مرّ بك فى حياتك، وخير منه.

﴿ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٨) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (١٩) ﴾

الإشارة إلى ما ذكر سابقا من الفلاح والتطهر حتى صار واضحا كأنه مشار إليه، ماثل أمام الأعين، وإبراز الشىء المعنوى فى صورة الشىء المحسوس يزيده وضوحا وتأكيدا، وقوة وتأثيرا.

إن هذا ثابت ومؤكد فى الصحف السابقة على القرآن، و «الصحف الأولى» كناية عن صحف إبراهيم وموسى التى أتى ذكرهما فى الآية اللاحقة.

ثم بيّنها ووضحها وأخبر عنها بأنها صحف إبراهيم وموسى، صحف إبراهيم الخليل كانت عشر صحائف. وصحف موسى هى الألواح التى كتبت فيها التوراة.

والسورة كلها بعدد آياتها التسع عشرة جاءت فواصلها متآخية مختومة بالألف، فبينها تناغم وموسيقى ظاهرة، غير الموسيقى الباطنة التى تتخلل الآيات فى نظمها وترتيبها، وبناء آياتها كأنها هرم عظيم، لبناته متناسقة يتبع بعضها بعضا فى تلاؤم واتساق وجمال وتأثير .

* * *

سورة الغاشية مكية

(عدد الآيات ٢٦ آية، نزلت بعد الذاريات)

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) ﴾

« هل » أداة استفهام للتعجيب مما ورد بعدها من الأخبار والتشويق إلى استماعه، والإشعار بأنه من الأحاديث البديعة التى يجب أن يتناقلها الرواة، أو أن « هل » بمعنى قد، أى قد جاءك يا محمد حديث الغاشية [١] .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) ﴾

هذه جملة مستأنفة جواب لسؤال مقدر كأنه قيل: ما هو؟ [٢] ونكر «وجوه» للتنويع. لأن الوجوه يوم القيامة قد تكون خاشعة من الهول وانتظار العذاب، أو متنعمة تدخل جنة عالية .

والتنوين فى يومئذ عوض عن المضاف إليه، أى يوم غشيان الغاشية .

وخاشعة : ذليلة خاضعة. والمراد بالوجوه أصحابها مجازا مرسلا حيث عبر بالجزء وأراد الكل .

وفى الكلام حذف مفهوم من السياق ؛ إذا لا معدل عنه، ولا خروج عليه، أى خاشعة فى النار. وجاء الحذف إيجازا واختصارا .

﴿ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (٣) ﴾

تعمل أعمالا شاقة وهى جر السلاسل والأغلال والخوض فى النار والوقوف حفاة فى العرصات. ناصبة : منهكة متعبة .

﴿ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (٤) ﴾

---

(١) يقول ابن جنى إن قد تفيد التحقيق، وتأتى عن قصد لتفيد غرضا بلاغيا هو التأكيد ورفع الشك وتحقق الوقوع. المحتسب ٢/٢٩٧ .

(٢) وهو ما يسمى بشبه كمال الاتصال، وقد تحدث عنه المبرد فى كتابه المقتضب ٤/١٢٥، والزملكانى فى كتابه التبيان فى علم البيان ٦٣ .

تدخل جحيما متناهٍ فى الحرارة والشدة، ونكر « نارا » لتفظيعها وشدتها وفظاعتها .

﴿ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴿٥﴾ ﴾

الآنية من الآنى الذى قد انتهى حرُّه، فإذا أدنيت من وجوههم تناثرت لحومهم ووجوههم، وإذا شربوا قُطعت أمعاؤهم .

والتعبير باسم الفاعل فى الغاشية وخاشعة، وناصبة، وحامية، وآنية جاء لغرض بلاغى كما يقول ابن جنى، لاستحضار الصورة. كما فى قوله تعالى ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ الكهف آية ١٨ .

فاستحضر القرآن صورة الغاشية وهى يوم القيامة بأهوالها وما يحدث فيها للكافرين من عذاب .

﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ ﴾

أورد ضمير العقلاء « ليس لهم » مما يدل على أن المراد بالوجوه أصحابها. ونكر « طعام » لبيان نوعية الطعام وأنه من ضريع، وإن كان ثمة طعام من نوع آخر كالزقوم والغسلين للآخرين، بحسب أحوالهم وآثامهم .

والضريع كما يقول الخليل بن أحمد : نبات أخضر منتن الرائحة يَرمى به البحر، وهو نوع من الشوك يقال له الشبرق إذا كان رطبا، فإذا يبس فهو الضريع، وهو سم قاتل لا تقربه الدواب .

وفيه معنى القصر والاختصاص، وأداته النفى والاستثناء، من قصر الموصوف على الصفة. أى ليس لهم إلا هذا النوع من الطعام الذى تعافه الدواب ؛ لأنه سم زعاف .

هذا الطعام ليس من شأنه أن يسمن ويشبع مثل طعام الدنيا، وإنما هو شر مستطير لا يجدون سواه فى الآخرة، والتنكير فى (جوع) للتحقير أى لا يغنى من جوع ما .

بعد أن فرغ من ذكر حال أهل النار شرع فى ذكر أحوال أهل الجنة .

---

(١) المحتسب ٢/٢٧٤ .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (٨) ﴾

لم تعطف هذه الآية على ما قبلها لتباين مضمون الفريقين، فأهوال المؤمنين وما ينتظرونه من ثواب مخالف لأحوال الكافرين وما يتوقعونه من عقاب، ولهذا لم تعطف على ما قبلها ؛ لأن العطف لابد فيه من التوافق، ولا توافق بينهما .

وقدم ذكر أحوال أهل النار على ذكر أحوال أهل الجنة ؛ لما فى ذلك من تهويل أمر الغاشية وهول الحديث عنها وهيبتها حتى ينزجر الناس ويتجنبوا ما يدعو للدخول فيها والاكتواء بنارها .

وعبر بكلمة « وجوه » والمراد أصحابها من المؤمنين مجازا مرسلا لعلاقة الجزئية .

ونكر « وجوه » لأنها الفريق الثانى للتفريع والتنويع .

والتنوين فى «يومئذ» عوض عن المضاف إليه المحذوف كما فى قوله « وجوه يومئذ خاشعة ».

ناعمة : متنعمة فى الجنة، وحذف الجار والمجرور للعلم به ولعدم إيهام معنى غيره .

﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) ﴾

اللام تفيد التعليل، أى لأجل سعيها فى طاعة الله ترضى بثوابها وجزائها عند الله .

وقدم (لسعيها) وهى متعلقة (براضية)، للاهتمام بشأن سعيهم فى الدنيا، وما أثيبوا عليه فى الآخرة .

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) ﴾

أى عالية القدر لأن فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين .

ونكر جنة وعالية، لتعظيم الجنة وعلو قدرها عند الله .

﴿ لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً (١١) ﴾

يقول الفراء والأخفش : لا تسمع فيها كلمة لغْو، والنكرة فى سياق النفى تفيد العموم، أى لا تسمع أى نوع من اللغو حتى ولو كان ضئيلا .

﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾

التنكير فى « عين » يفيد الجنس والعموم أى عيون كثيرة وقدم الخبر الجار والمجرور على المبتدأ لبيان الاهتمام بأمر الجنة وما فيها .

وقد يكون الغرض من التقديم اختصاص الجنة دون غيرها بالعيون .

والتعبير باسم الفاعل فى قوله : ناعمة، وراضية، وعالية، ولاغية، وجارية. لاستحضار صورة هذه الأوصاف للجنة ونزلائها من المؤمنين .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾

قدم الخبر لأن المراد أن فى الجنة لا فى غيرها هذا النوع من الأسّرة، والسرر جمع سرير، لبيان أنها سرر من نوع خاص، موصوفة بأنها عالية القدر مرتفعة السمك تناسب عظمتهم وتنعمهم .

﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾

الكوب : إناء بلا عروة ليمسكوا به من أى طرف تسهيلا لهم، حتى فى أبسط الأشياء لا يعانون منها، أكواب موضوعة بين أيديهم ماثلة أمامهم يشربون منها وقت ما يريدون .

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ ﴾

أى وسائد صغيرة صف بعضها إلى بعض، إمعانا فى الرفاهية والتنعم، يستندون عليها للاستراحة .

﴿ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾

جمع زربى، وهو ضرب من الثياب محبًّر، وصف به البسط على سبيل التشبيه، أى بسط كالزرابى. أى بسط مفرقة على الأسرة، كالثياب المحبرة فى جمال شكلها وروعة منظرها .

هذه الأشياء المذكورة فى الجنة التى يتنعم بها المؤمنون: من العيون الجارية، والسرر المرفوعة، والأكواب الموضوعة، والنمارق المصفوفة، والزرابى المبثوثة. تدخل فى مراعاة النظير ؛ لتقارب بعضها من بعض ودخول بعضها فى بعض، فهى تكّون صورة متوافقة متلائمة، وتعطى لوحة رائعة لما يعدّه الله للمؤمنين فى الآخرة .

﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) ﴾

الهمزة للإنكار والتوبيخ لاستبعادهم وقوع البعث، فكأن الكلام : أينكرون البعث والله قادر عليه، أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت؟ فهى من أعظم المخلوقات.

وخص الإبل بالذكر دون غيرها من الحيوانات ؛ لأنها تبرك فتحمل الأثقال أما غيرها من الحيوان فلا يحمل إلا وهو قائم .

يقول الزجاج : فيه تنبيه على عظيم من خلقه، ذلّله للصغير يقوده حيث يشاء، وينميه، ويحمل عليه الأثقال وهو بارك فينهض بثقل حمله، فعل الله ذلك ليدل على توحيده وقدرته العظيمة .

أما الفيل فالعرب بعيدة العهد به، لا يركب ظهره ولا يؤكل لحمه ولا يحلب درّه، والإبل من أعز مال العرب وأنفسه .

والإبل : اسم جمع لا واحد له من لفظه، وإنما واحده بعير وناقة وجمل. ومن دلائل قدرة الله سبحانه خلق السماء ورفعها .

﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) ﴾

رفعت فوق الأرض بلا عمد، على وجه عجيب لا يدركه العقل، وقدم ذكر (السماء) على الفعل « رفعت » لبيان أهميتها واندهاش الناظر إليها، وبنى الفعل للمجهول أى رفعها الله ؛ لتعينه، وعدم الإبهام بأن غيره هو الذى رفعها .

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) ﴾

نصبت على الأرض حتى لا تميد ولا تميل، فكانت الجبال من عجائب خلقه سبحانه، وطويت فائدتها للعموم لما فيها من رسوخ الأرض دون ميل، وامتلائها بما يفيد الناس فى حياتهم وشئونهم .

فالأفعال الأربعة مبنية للمجهول، كيف خُلقت، وكيف رفُعت، وكيف نُصبت، وكيف سُطحت دلالة على أن الفاعل الحقيقى هو الله دون سواه لذا طوى ذكره للعلم به .

والجمع بين السماء والأرض طباق، وبينهما وبين الجبال والإبل مراعاة

للنظير فكلها تجرى فى مضمار واحد، وعلى نسق واحد، فتعطى للناظر صورة خلابة حسنة تشد الانتباه وتأسر القلوب وتسبى النفوس.

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾

الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها .

والفعل جاء بصيغة الأمر للإرشاد والنصح .

وعلل ذلك بأنه مذكّر ورسالة الرسول مقصورة على التذكير دون الهداية، «إنما» أداة القصر، والمقصور عليه هو المتأخر مذكر .

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) ﴾

أكد رسالة محمد ﷺ بأنه مذكر، ونفى عنه ما هو أبعد من ذلك من هداية أو سيطرة أو إجبار، وليس له أن يُكره أحدا على الإيمان .

﴿ إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ (٢٤) ﴾

« إلا » منقطعة بمعنى (لكن) من أعرض عن الحق، وثبت على الكفر، والضمير فى يعذبه يعود على « مَنْ تَولى » باعتبار لفظها المفرد. وقدم الضمير المفعول به للاهتمام بأمر عذابه وشدته « فيعذبه الله » وأكد تعذيبه بذكر مصدره « العذاب »، ووصفه بأفعل التفضيل « الأكبر » أى أنه أكبر من أى عذاب آخر لا قوة فى دنياهم من جوع وقحط وقتل وأسر. فهو أشد نكالا من عذاب الدنيا.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦) ﴾

الإياب : الرجوع. وقدم الخبر « إلينا » فى الآية الأولى ليفيد أن مرجعهم إليه سبحانه دون غيره، وقدم (علينا) فى الآية الثانية ليفيد أن حسابهم على الله دون غيره مبالغة فى حسابهم وأنه مقصور على الله سبحانه .

وخاطبهم بضمير الجمع الذى يعود على « من تولى » باعتبار المعنى لا اللفظ وذكر « ثم » التى تفيد التراخى فى الرتبة والزمان لبُعد منزلة الحساب عن منزلة الإياب فى الشدة والهوان .

* * *

سورة الفجر مكية

(عدد الآيات ٣٠ آية، نزلت بعد الليل)

﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ ﴾

أقسم سبحانه بهذه المخلوقات : الفجر وما بعدها ، دلالة على تعظيم ما أقسم به ورفعة شأنها عنده .

﴿ وَالْفَجْرِ ۝١ ﴾

وسمى الفجر فجرا ؛ لأنه وقت انفجار الظلام عن النهار من كل يوم . وأقسم بالفجر ؛ لأنه أول وقت ظهور الضوء من المشرق ، وانتشار الناس وخروج الطير والوحش لتصيب أرزاقها .

﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ ﴾

هى العشر الأوائل من ذى الحجة ، أو العشر الأواخر من شهر رمضان المعظم، وخصها بالتنكير لتعظيمها والانشغال بها فى مناسك الحج إذا كان المراد العشر الأوائل من ذى الحجة، أو التطلع إلى ليلة القدر إذا كان المراد بها العشر الأواخر من رمضان لأنها خير من ألف شهر .

﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ ﴾

«أل» فى الشفع والوتر للعموم والاستغراق، فيدخل فيها كل شفع ووتر. والشفع: الزوج، والوتر: الفرد. هكذا عند العرب، وقيل هما: آدم وحواء، لأن آدم كان وتراً فشفعه الله بحواء.

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ ﴾

« أل » فى الليل لإفادة جنس الليل ، ويسر : من السير ليلا .

وأقسم به لرهبته وسكونه - وانتشار الحيوانات والآثام فيه .

« ويسر » أصلها يسرى ، فحذفت الياء موافقة لرءوس الآيات ، هذا قول الخليل . والفراء يقول : تحذف العرب الياء وتكتفى بكسر ما قبلها . وفى الآية مجاز عقلى ؛ لأنه أسند الفعل لغير ما هو له فى الحقيقة ، فالليل لا يسرى - يمضى - حقيقة ، وإنما يسرى الناس فيه ، وعلاقته الزمانية .

﴿ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) ﴾

استفهام جاء لتقرير تعظيم ما أقسم به الله سبحانه وتفخيمه من هذه الأمور المذكورة، أى أن ما أقسم به جدير أن تؤكد به الأخبار عند أرباب العقول. «لذى حجر» أى عقل ولبّ. فمن كان لديه عقل ولب، علم عظمة ما أقسم به تعالى.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) ﴾

المراد بعاد أولاد عاد، فعبَّر بالخصوص وأراد العموم مجازا، وهم عاد الأولى، ويقال لمن بعدهم عاد الأخرى.

والرؤية فى «ألم تر» قلبية وليست بصرية، أى ألم ينته علمك بما فعل ربك بعاد. والاستفهام هنا للتقرير والتعجيب لما أصاب عادا من دمار، فسيعذب كفار مكة كما عذب قوم عاد من قبلهم.

﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) ﴾

«إرم» عطف بيان لعاد؛ إذ يرجع إلى «إرم» مجتمع عاد وثمود، فالقبيلتان تنسبان إلى «إرم».

«ذات العماد» كناية عن القوة والشدة، وهى صفة لإرم، واللام للجنس حتى تشملهم جميعا: القليل منهم والكثير.

والعماد بمعني العمود، على تشبيه قاماتهم بالأعمدة فى طولها وصلابتها؛ لأنهم كانوا ذوى قدود طوال.

﴿ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) ﴾

أى مثلها فى القوة وامتداد القامة، كانوا يقولون: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فصلت ١٥ و«أل» فى البلاد للعهد أى البلاد المعهودة لديهم وكانت فى زمانهم لا فى زماننا. ثم عطف سبحانه عادا الأخرى وهى ثمود على قبيلة عاد الأولى.

﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾﴾

جابوا الصخر: قطعوه. كانوا ينحتون الجبال ويجعلونها بيوتا يسكنون فيها. والمراد بثمود القبيلة، فعبر بالخاص وأراد العام مجازا.

وأصل «الوادِ» الوادى فحذفت الياء؛ اكتفاء بالكسرة مراعاة للفاصلة. وهو وادى القرى بالقرب من المدينة المنورة من جهة الشام.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾

الأوتاد صفة لجند فرعون، وحذف لأنه مفهوم من السياق، أى الذين كانت لهم خيام كثيرة يشدونها بالأوتاد.

أو جعل من جنود فرعون أوتادا على سبيل التجريد؛ لأنهم يشدون مُلكه، كما تشد الأوتاد الخيمة.

وفرعون لقب أفرده اللَّهُ تعالى بالذكر، لانفراده بالتكبر والتعظم حتى ادّعي الربوبية.

﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ ﴿١١﴾﴾

عبَّر بالاسم الموصول ليشمل قوم عاد وثمود وفرعون، أى طغت كل طائفة فى بلادهم، وتمردت وعتت عن أمر ربها.

وعبَّر بالطغيان وهو تجاوز الحد، عن العتوّ والتكبُّر على سبيل الاستعارة، لما فى كل منهما من الاستعلاء المفرط.

﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾

أى ذّم الذين طغوا فى البلاد؛ لأنهم أكثروا من الفساد فى بلادهم فقدم المسبب وأخر السبب.

﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) ﴾

أى أفرغ عليهم ما عذبهم به، وألقى عليهم العذاب فى صورة الصب المنهمر على ظهورهم وأجسادهم، وفى التعبير «بصبّ» أبلغ من الإلقاء، لما فيه من الكثرة والشدة والتتابع.

ونسب الصب للسوط، مع أنه لا يسند إليه حقيقةً؛ حيث أراد تشبيه ما ينزل عليهم من أثر السوط المتتابع بقطرات الشىء المصبوب.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾

فى هذه الآية إشارة إلى أن الكفار فى عهد رسول الله ﷺ سيصيبهم مثل ما أصاب قوم عاد وثمود وفرعون، ففيها تهديد ووعيد لكفار مكة، وأكد هذا الوعيد بـ (إن) واسمية الجملة واللام الداخلة على الخبر. «والمرصاد» المكان الذى يترقب فيه الراصدون.

فهذا مجرد تمثيل لإرصاده تعالى بالعصاة وأنهم لا يفلتون من عقابه.

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾

ابتلاه : امتحنه واختبره بالنعم، فأكرمه بالمال ووسَّع عليه بالرزق، فيفرح بما نال من عطاء دون أن يخطر بباله أن ذلك امتحان له واختبار من ربه.

و«أل» لإفادة الجنس ويدل على العموم. و«ما» زائدة «والفاء» تفسيرية فهى تفسر الابتلاء، فالابتلاء هو الإكرام والنعمة.

قيل إن «أل» فى الإنسان للعهد؛ لأن المراد به: أبىّ بن خلف الكافر.

وإذا «قدر عليه رزقه» وضيَّقه ولم يوسعه عليه، ولم يبسطه له، فيقول متضجرا «ربى أهانن»، وهى صفة الكافر الذى لا يؤمن بالبعث.

وبين الآيتين مقابلة جميلة، حيث قابل بين الإكرام والنعمة وبين تقّتير الرزق والإهانة، مما أعطى الكلام تنغيما ومماثلة فى التغاير بين نوعين من الإنسان؛ نوع

يعترف بنعم الله ويشكره عليها، ونوع آخر يجحد نعم الله عليه إذا اختبر ولا يصبر على هذا الاختبار. ويظن أن ربه تركه ذليلا مهانا دون أن يعرف أن ربه ناظر إليه بنظر الرحمة والشفقة. وحذفت النون فى أكرمنى وأهاننى للتخفيف.

﴿ كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) ﴾

كلا أداة ردع للإنسان الذى أكرمه ربه ظنا منه أن هذا الإكرام لاستحقاقه له، وردع للإنسان الذى قتر عليه ربه فى الرزق ليختبره هل يصبر أم يجزع؟ والله لم يبسط الرزق لكرامة الإنسان عنده، ولم يقتّره لإهانته بل اختبارا وامتحانا لكلا النوعين من الإنسان.

فالتفت فى الآية من الغيبة إلى الخطاب لقصد التقريع والتوبيخ. والالتفات يتناوله ابن جنى ولا ينظر إليه تلك النظرة السطحية التى سار عليها البلاغيون السابقون لعهده، حيث قالوا إن سبب الالتفاف هو العمل على تجديد نشاط السامع دون أن يكشفوا عن الوجه البلاغى للعدول عن أسلوب إلى أسلوب آخر [1].

﴿ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) ﴾

أى لا تحضّون أنفسكم، فحذف المفعول به، لضيق المقام وللعلم به كما حذف التاء من الفعل تخفيفا، أى تتحاضّون، ولا يحض بعضكم بعضا على بذل طعام المسكين، فحذف المضاف أيضا، فحذْف الحرف، وحذف المفعول به، وحذف المضاف، اختصارا لضيق المقام وفهمه من سياق الآية.

﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) ﴾

المراد بالتراث: أموال اليتامى التى يرثونها من أقربائهم، وكذلك أموال النساء؛ فقد كانوا لا يورّثون النساء والصبيان.

«وأكلا لمّاً» أكلا شديدا، لا يتركون منه شيئا لأصحابه من اليتامى والنساء. يأكلونه برمّته، وأصل اللّم فى كلام العرب: الجمع ومنه قولهم: لمّ الله شعثه، أى جمع ما تفرّق من أموره.

---

(١) المحتسب - ابن جنى - ١/ ١٤١.

«وتحبون المال حبا جما» حبا كثيرا مع حرص وشره، وفى ذلك نهاية لذمهم حيث قصدوا الدنيا دومًا، وأهملوا أمر الآخرة تماما.

وأكل التراث «ليس أسلوبا حقيقيا؛ لأن المال لا يؤكل بذاته، وإنما ما يشترى به من طعام وشراب، وأكد الأكل بالمصدر حتى يتوهم السامع أنه أكل حقيقى، وينسى أن المراد ما يصير إليه التراث من طعام وفاكهة.

وتحبون جنس المال حبا كثيرا أكثر من حبكم لشىء آخر مهما كانت قيمته. فالمال أغلى لديكم من كل شىء.

والآيتان من السجع المتوسط ليس بالطويل ولا بالقصير.

ويدخل تحت نوع يسمى بالتصريع، «لأن جميع ما فى إحدى القرينتين من الألفاظ مثل ما يقابله من الأخرى فى الوزن والتقفية» (١)

﴿ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) ﴾

أوعدهم الله وأنذرهم، بعد أن ردعهم وزجرهم. أى دق أعناقهم وكسر ظهورهم، وزلزلت الأرض من تحت أقدامهم، فدكت الأرض مرة تلو المرة.

وفى الآية تأكيدان: «دكاً» الأولى مصدر لدكت الأرض، و«دكا» الثانية تأكيد للأولى.

والتنكير جاء لتعظيم أمر الدكّ.

أى أن الأرض دُكَّتْ دكًا متتابعا، وضرب بعضها ببعض حتى تفتت كل ما على وجهها من جبال وأبنية وصارت هباء منبثا.

﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) ﴾

أى جاء أمره وظهرت آيات قدرته وآثار قهره، والربّ لا يجئ حقيقةً لجلاله، ومخالفته للحوادث، أى جاء أمر الله والملك تحفّه صفوفا صفوفا لا نهاية لها، دائمة لا تنقطع.

---

(١) الإيضاح - للخطيب القزوينى ص ٤٤٢ ت د/ عبد القادر حسين، ط الآداب.

فجاء ربك معناها جاء أمر ربك، فحذف المضاف تخفيفا يقول سيبويه كما فى قوله تعالى: «واسأل القرية»، وإنما يريد أهل القرية، ويطؤهم الطريق، تريد يطؤهم أهل الطريق، وهذا فى كلام العرب كثير [1] والحذف فيه للتخفيف.

﴿ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (٢٣) ﴾

أى يوم يعرضون على جهنم، يتذكرون ما فرطوا فيه، نادمين على تفريطهم وتقديمهم الكفر والمعاصى، فهل يتعظون؟! وأنَّى لهم الذكرى، فمن أين لهم التذكر والاتعاظ، وكيف يتوبون ولا توبة لهم لفوت الوقت؟!

﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) ﴾

جاءت هذه الآية غير مرتبطة بما قبلها، ولم يذكر معها حرف عطف، فهى مستأنفة؛ لأن هذه الجملة جاءت جوابًا لسؤال مقدر كأنه قيل: ماذا يقول الإنسان؟ وهو ما يسمى بشبه كمال الاتصال عند البلاغيين.

وانظر إلى دخول «يا» التى تفيد نداء البعيد، على «ليت» التى تفيد التمنى «ياليتنى» فهو إذن يستبعد تحقيق تمنيه، فالتمنى بعيد فى حد ذاته، وزاده استبعادا دخول «يا» التى تفيد البعد أيضا. حتى صار تمنيه مستحيلا بعيد المنال، ولن يتحقق أبدا.

كيف يتمنى أن يقدم الخير ويصنع المعروف بعد فوات الأوان.

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) ﴾

أى لا يُعذّب كعذاب الله أحد، ولا يوثق كوثاقه أحد، بمعنى ألا يتولى عذاب الله ووثاقه أحد سواه؛ إذ الأمر كله لله وحده.

ففيه معنى القصر، حيث أثبت العذاب والوثاق لذاته تعالى دون غيره من الملائكة، مبالغة فى كنه العذاب وشدته.

وهو أيضا فيه معنى التشبيه الذى حذفت منه الأداة.

(١) الكتاب - سيبويه ٢/ ٢٥.

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ ﴾

استعمل «يا» لنداء البعيد مع أن النفس قريبة من الله، فهى أقرب إليه من حبل الوريد، لرفعة منزلتها عند الله سبحانه، فنزل بعد المكان منزلة بعد المكانة.

وصف النفس بالاطمئنان، وهى السكينة النابعة من الإيمان والتوحيد، سعيدة لبعدها عن القلق والتوتر، والمراد بها كل نفس مطمئنة على العموم.

ارجعى إلى رحمة ربك متلفعة بالثواب، مرضية عنده لما حباك به من الجزاء الأوفى.

وادخلى فى زمرة عبادى الصالحين، وانتظمى فى سلكهم، وادخلى جنتى يوم القيامة.

ادخلى فى زمرة الخواص وهى السعادة الروحية، وادخلى فى جنتى وهى السعادة الجسمانية.

* * *

سورة البلد مكية

(عدد الآيات ٢٠ آية، نزلت بعد قَ)

﴿ لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ① وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ② ﴾

﴿ لا ﴾ زائدة ، والمعنى : أقسم بهذا البلد ، وهو إجماع المفسرين ، كقول العرب فى قوله تعالى : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ ﴾ الاعراف : ٢ يعنى أن تسجد . أو هى رد على كلام سابق محذوف عن البعث حين أنكروه ، وكأنه قال : ليس الأمر كما ذكرتم ، أقسم بهذا البلد ، فذِكْرُ ﴿ لا ﴾ هنا أفاد معنى جملتين : إحداهما منفية والأخرى مثبتة .

وقد تحذف ﴿ لا ﴾ وهى مرادة كقوله تعالى ﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾ يوسف ٨٥ . والمعنى : تالله لا تفتأ تذكر يوسف ، فكما تحذف ﴿ لا ﴾ وهى مرادة فى الكلام ، فكذلك تزاد فى الكلام وهى غير مرادة كما فى لا أقسم ، وحذفت اللام لضيق المقام عن ذكرها .

﴿ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ أشار إلى البلد - وهو البلد الحرام ، والمراد به مكة .

والإشارة هنا لها مغزاها البلاغى ، أى القريب لدىّ ، وينبغى أن يكون قريبا من قلوبكم وأبصاركم ، ملتصق بكم ، فإذا غاب عن أبصاركم ، لا يغيب عن قلوبكم « فأل » فى البلد ، للعهد ، أى البلد الحرام ، الأمين كما ورد فى سورة التين حيث قال : ﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ .

أقسم بالبلد الحرام ، لفضله عن سائر البلدان حيث جعله حرمَ إبراهيم ، ومسقط رأس رسول الله ﷺ ووجّه الحجيج إليه إلى غير ذلك من مآثره .

﴿ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ خطاب لرسول الله ﷺ ، أى والحال أنك حال فى مكة نازل بها ، فزاد البلد فضلاً بعد أن كانت فاضلة بنفسها ، وزادت تشريفا بحلول النبى ﷺ بها .

وفى ذلك تعريض بكفار مكة حيث قرروا إخراج رسول الله منها لجهلهم بقدره ومكانته حين دعاهم إلى الإيمان .

ووعد لرسوله أن يحل فيها بعد أن هاجر منها ، إلى المدينة ، أن ينزل إليها فاتحا فى المستقبل ، كقوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون ».

أى ستموت وسيموتون . فمعنى وأنت حلّ ، أى ستحل ، فهى مجاز مرسل باعتبار ما سيكون .

﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) ﴾

نكر « والد » لتفخيمه وتعظيمه ، والمراد به إبراهيم عليه السلام أبو الأنبياء ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ هو إسماعيل عليه السلام .

وآثر استعمال « ما » بدلا من « مَن » تعجيبًا وتفخيمًا مما أعطى الله أنبياءه من الكمال .

أو أن المراد بالوالد آدم عليه السلام ، وبما ولد ذريته وما تناسل من ذريته ، أقسم بهم لأنهم أعجب ما خلق الله على وجه الأرض ؛ لما فيهم من البيان والعقل والتدبير ، ولما فيهم من الأنبياء والعلماء والصالحين .

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) ﴾

اللام وقد أداتان لتأكيد ما جاء بعدهما .

وأسند الخلق إليه سبحانه ، تعظيمًا لهم ورفعة لشأنهم .

« وأل » فى الإنسان لإفادة الجنس أى جنس الإنسان وأفراده .

﴿ فِي كَبَدٍ ﴾ (فى) تفيد الظرفية، ولكنها جاءت هنا للاستعارة ؛ لأن ﴿الكَبَدِ﴾ أى المشقة والتعب ليس ظرفا حتى تدخل عليه ﴿فِي﴾ فاستعمالها فى الآية على سبيل المجاز أو الاستعارة التبعية ، ونكر ﴿كَبَدٍ﴾ لتعظيمه وشدته، وهذه الآية جاءت مؤكدة جوابا للقسم فى أول السورة .

وقد خلق الإنسان فى كبد لكثرة معاناته ومكابدته من قطع سرته حين الولادة ، إلى مكابدة الختان، ثم الكبر والهرم. والمقاساة من شدة الموت وسؤال القبر وظلمته، ثم البعث والعرض، واستقراره فى الجنة أو فى النار .

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) ﴾

أيظن ابن آدم أن لن يقدر عليه أحد مهما كان قويا ، ولا ينتقم منه أحد مهما كان عظيما ، فتنكير ﴿ أَحَد ﴾ يفيد التعظيم .

﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا ﴿٦﴾ ﴾

أنفقت مالا كثيرا مجتمعا بعضه على بعض ، مال لا يخشى فناؤه من كثرته.

فتنكير ﴿ مالا ﴾ ليفيد كثرته وغزارته حتى أنه وصفه بما يؤكد ذلك. ﴿ لُّبَداً ﴾ على وزن « فُعل » وهى صيغة تفيد الكثرة كما تقول : رجل حُطَم ، إذا كان كثير الحطْم .

واستعار الإهلاك فى ﴿ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَدًا ﴾ للإنفاق ؛ إشارة إلى أنه ضائع فى الحقيقة إذ لا ينتفع به صاحبه فى الآخرة .

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ ﴾

أيظن ألاَّ يسأله أحد عن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟

فالله يراه ويطَّلع على خبث نواياه وفساد سريرته ، ويعرف إذا كان قد أنفق ماله مباهاةً وتفاخرًا فيجاز به عليه بعقوبته .

ونكر « أحد » هنا لإفادة العموم ، أى لم يطلع عليه أحد صغيرا أم كبيرا عظيما أم حقيرا ، فيشمل كل أحد .

﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ ﴾

ذكر الله سبحانه ما أنعم به على عبده من البصر والكلام .

والاستفهام يفيد التقرير والتأكيد ، أى أنه جعل له ﴿ عَيْنَيْن ﴾ يبصر بهما ، ﴿ وَلِسَانًا ﴾ ينطق به ، ﴿ وَشَفَتَيْن ﴾ يستر بهما ثغره . ألم نفعل به ما يدل على أن الله قادر على أن يبعثه .

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْن ﴾ النجد : المكان المرتفع ، والمراد هديناه وعرفناه طريق الخير وطريق الشر ، وجعلناهما ظاهرين كظهور الطريق المرتفع الذى لا يخفى على الناظر، فالتشبيه ضمنى، ولكن طريق الخير مرتفع ، وطريق الشر منخفض ، والنجدين عبر بهما على سبيل التغليب .

أو هديناه إلى الثديين وهو طفل رضيع لا يدرك شيئًا ، فهديناه إلى طريقى

الثديين ، لأنهما طريقان مرتفعان ينزل منهما اللبن فيمصه الطفل ويتقوّت به وبذلك يكون أسلوبا كنائيا حيث عبر باللازم وهو النجدان وأراد الملزوم وهو الثديان .

﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) ﴾

العقبة فى الأصل : الطريق فى الجبل ، وسميت بذلك لصعوبة سلوكها .

وفى العقبة مجاهدة للنفس والهوى ، والاقتحام : الدخول فى أمر شديد دون روّية . فهلا تفيد التحضيض والحث على الاقتحام ، وما فيه من صعوبة، فأى شىء أعلمك ما اقتحامها ؟

﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) ﴾

هى إعتاق رقبة وتخليصها من أسر الرق .

والمراد بالرقبة ، النفس البشرية ، وعبر بالرقبة حيث عبر بالجزء وأراد الكل مجازا .

فالعقبة هى نفسها « فك الرقبة » ، وفك الرقبة تفسير لها وبيان، فجاءت بدون واو.

﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) ﴾

وصف اليوم بأنه ذو مسغبة ، والمسغبة : الجوع ، وهذا الوصف يشير إلى أنه مجاز عقلى ؛ لأن اليوم لا يوصف بالجوع وإنما يجوع أهله فيه .

وقيد الإطعام بيوم المجاعة ؛ لأن إخراج المال والطعام فى ذلك اليوم أثقل على النفس فيكون أوجب للأجر .

وفضل الإطعام أن يكون لذى قرابة يتيم، حتى تجتمع فيه صفتا الاستحقاق، صفة اليتم ، وهى الضعف ، وصفة القرابة ، فيجمع بين صلتى الرحم والصدقة.

﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ﴾

فإطعام الأحوج أفضل ، وثوابه أعم .

واليتيم هو الذى لا أبا له ، أو هو الضعيف .

والمسكين ذو المتربة ، أى الذى لا شىء له كأنه التصق بالتراب وليس له مأوى إلا التراب .

فالتنكير فى « يتيمًا » ، وفى « مسكينًا » يفيد الضعف وطلب الشفقة ، والوصف بأن اليتيم ذو قرابة ، والمسكين بأنه ملتصق بالتراب ، يفيد استمطار الرحمة والشفقة لكل منهما .

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) ﴾

استعمل « ثم » التى تفيد التراخى ، نزل بعد مكانة المؤمنين عند الله منزلة البعد المكانى ؛ لأنهم أتوا بهذه الصفات من فك الرقاب وإطعام اليتامى والمساكين قربة لوجه الله وليس لغرض من الأغراض الدنيوية ؛ فهم قد تواصوا بالرحمة على عباد الله واستكثروا من الخير ، وفى ذلك تكميل بعد كمال الإيمان ، وزاد الإيمان كمالا بتواصيهم بالصبر والمرحمة.

﴿ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) ﴾

أصحاب اليمين الذين يُعطون كتبهم بأيمانهم ، وعبر بأولئك ، التى تفيد الإشارة للبعيد ، لبعد منزلتهم عند الله سبحانه .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) ﴾

وصفهم بالكفر ، ووصفهم بأنهم أصحاب الشؤم ، وعبر بضمير الغائب «هم» للدلالة على سقوط منزلتهم وبعدهم عن حضرة الله سبحانه ، فهم أحق بالإخفاء، و﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أى بالقرآن فعبر بالجزء وأراد الكل مجازا .

﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (٢٠) ﴾

أى علتْهم النار ، وتمكنت من تعذيبهم ، وقد أفادت ذلك لفظة ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾، ووصف النار بأنها ﴿ مُّؤْصَدَةٌ ﴾ أى مطبقة مغلقة عليهم لا يستطيعون منها فرارا أو هروبا ، فيشتد عذابهم وجؤارهم .

وقدم الخبر « عَلَيْهِمْ » على المبتدأ « نَارٌ » ليفيد كما قال صاحب الأكسير فى علم التفسير [1] اختصاص المجرور دون غيره بإسناد ما بعده من معنى الكلام إليه.

أى أن النار مختصة بالذين كفروا بالقرآن ، هذه النار التى أوصدت عليهم دون غيرهم من العصاة .

(١) ص ١٩٢ ط دار الأوزاعى : تاليف الطوفى البغدادى ت . د / عبد القادر حسين .

سورة الشمس مكية

(عدد الآيات ١٥ آية، نزلت بعد القدر)

﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ ﴾

أقسم سبحانه بالشمس إذا طلعت، والشمس نجم مضئ، يتلألأ نهارا، والمراد بالضحى: النهار كله، ويستعمل الضحى حقيقة عند ارتفاع الشمس قبل الظهر، فالضحى مجاز علاقته الجزئية، حيث عبر بها وأراد طول النهار.

﴿ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ۝٢ ﴾

والقمر نجم يتبع الشمس ويستمد نوره منها، ويطلع إذا غربت الشمس، فأقسم بالقمر باعتبار أنه تابع وتالٍ للشمس.

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا ۝٣ ﴾

أى جلىّ الشمس، فالشمس تنجلى تمام الانجلاء عند انبساط النهار فتتمحى الظلمة تماما، ويظهر كل ما على سطح الأرض من مخلوقات بعد أن كانت مستترة بالليل.

نسب القرآن التجلى إلى النهار، لا إلى الشمس، باعتبار وجود التجلى فى زمن النهار، فالآية مجاز عقلى علاقته الزمانية.

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ۝٤ ﴾

أى يخفى الليل الشمس فيذهب بضوئها فتغيب وتظلم الآفاق. فأسند التغشية إلى الليل، ولكنها واقعة فى زمن الليل، فهى من المجاز بعلاقة الزمانية كالآية السابقة.

وعبر فى هذه الآية بالفعل المضارع، يغشاها وفى الآيتين السابقتين بالفعل

الماضى تلاها وجلاها مع أن السياق واحد، للدلالة على أن الزمان كله واحد بالنسبة لله تعالى حاضرا كان أو ماضيا، لا يخرج عن قدرته شىء من هذا أو ذاك.

﴿ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ ﴾

عبر «بما» دون «من» لأنه أراد الوصف والتعجب منه؛ لأنه بناها على غاية العظم والفخامة، فكأنه قال: الذى بناها هو القادر العظيم الشأن.

﴿ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ ﴾

الطحو: البسط، فمعنى طحاها: بسطها، فبسط الأرض من كل جانب على الماء كى يعيش الناس فيها.

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ ﴾

نكر النفس لتعظيمها، سواء أراد بالنفس آدم عليه السلام، أو أراد بها كل نفس مخلوقة، فهى تستدعى التقدير والتعظيم.

ومعنى سواها: أنشأها وأبدعها وسوى أعضاءها.

﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ ﴾

عرفها طريق الفجور والتقوى، والمعصية والطاعة، أى ألهمها سبيل التوفيق والخذلان.

وطابق بين الفجور والتقوى باعتبار التضاد بينهما، لما فى ذلك من دلالة على قدرة الله العظيم الشاملة، أى أن الله ألهم النفس البشرية كل شىء؛ لأن الشىء، كل شىء، لا يخرج عن كونه داخلا إما فى الفجور أو فى التقوى.

أقسم سبحانه أولا بالشمس؛ لأنها أعظم المحسوسات شرفا ونفعا.

ثم وصفها بأوصافها وهى ضوؤها، وكونها متبوعة للقمر، ومتجلية عند ارتفاع النهار، ومختفية بالليل.

ثم أقسم بالسماء فهى أعظم من الشمس، وهى مسار لها. وفى ذلك تنبيه لعظمة كليهما. الشمس والسماء.

والقسم بالشىء تعظيم له وعلو بشأنه.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) ﴾ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠) ﴾

الآية جواب القسم بالشمس والسماء، والجملة فعلية ماضوية مؤكدة بقد «قد أفلح» وحذفت لام القسم لطول الكلام قبل ذكر جواب الشرط، فصار طول الكلام عوضا عن ذكر اللام. وتزكية النفس بإنمائها وإعلاء شأنها بالتقوى.

وخاب من دساها، أى ضل وخسر من أخفاها ولم يشهرها بالطاعة والعمل الصالح.

يقول أهل اللغة: الدس: إخفاء الشىء فى الشىء، وتزكية النفس: طهرها وصلاحها.

وبين الآيتين مقابلة، حيث أتى بمعنيين متوافقين، ثم بما يقابل ذلك على الترتيب: أفلح ضد خاب، وزكاها: ضد دساها، فقابل الثانية بالأولى؛ وهذا يختص باسم المقابلة. (١)

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (١١) ﴾

أى كذبت بالعذاب الذى وعدت به، والطغيان سبب فى العذاب، وجاء على سبيل المجاز المرسل علاقته السببية، والطغيان: مجاوزة الحد فى المعاصى.

وعبر بثمود - الجد الأكبر - وأراد القبيلة مجازا باعتبار الخصوص.

أو كذبت ثمود نبيها صالحا، فحذف المفعول به؛ لأن الغرض أن ينسب التكذيب لهم، ويسلط الفعل عليهم من غير إرادة تسلطه على المفعول به، فكان الفعل المتعدى كغير المتعدى (٢)

﴿ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا (١٢) ﴾

أى انتدب لذلك وقام بعقر الناقة، ولم يذكر اسمه تحقيرا لشأنه. وهو أشقى ثمود: قدار بن سالف.

---

(١) التحبير فى علم التفسير - السيوطى ص ٢٨٨.

(٢) الدلائل - عبدالقاهر الجرجانى، ١٥٤ ط شاكر.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾﴾

رسول الله كناية عن صالح عليه السلام.

وناقة الله، منصوبة على الحذف اختصارا، أى احذروا ناقة الله. وأضاف كلمة رسول إلى الله تشريفا لرسوله.

ومعني سقياها: أى خلّوا بين الناقة وشربها فى يومها المعلوم، ولكنهم لم ينفذوا اتفاقهم فهمّوا بقتلها.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾﴾

كرر التكذيب لتأكيد كذبهم، حيث قال: كذبت ثمود، ثم قال: فكذبوه فعقروها. والذى عقرها - أي نحرها - واحد منهم فحسب، ولكن أسند العقر مجازا إلى الجميع؛ لأنهم رضوا به.

وحقيقة الدمدمة: مضاعفة العذاب، أى هلاك باستئصال، وسوى الأرض: دفنهم تحت التراب، دون أن يفلت منهم أحد.

وتكرار الدال فى قوله «فدمدم» مبالغة فى الإحاطة بهم وتعذيبهم وهلاكهم.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾

فعندما عقر قدار بن سالف الذى وصفه الله بأشقى ثمود لم يخش صنيعه، ولم يخف عاقبة فعلته الخسيسة بعقره للناقة.

والسورة كلها تتميز بالسجع، وتجرى على وتيرة واحدة، فكل آية فى السورة تختم بهاء ممدودة، مما يجعل للسورة مذاقا عذبا وموسيقية رائعة رغم ما فيها من خسران وهلاك ودمدمة حيث أهلكوا بالصيحة، وباءوا بالدفن تحت التراب.

* * *

سورة الليل مكية

(عدد الآيات ٢١ آية، نزلت بعد الأعلى)

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ يغشى الليل الأفق وجميع ما بين السماء والأرض فيذهب ضوء النهار .

﴿ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴾ أى ظهر وانكشف ، بطلوع الشمس فيذهب ظلام الليل ويحل نور النهار .

وبين الآية الأولى والثانية مقابلة ، قابل شيئين بشيئين .

وحذف المفعول فى الآية الأولى ، أى الليل يغشى الشمس أو يخفى النهار .

فعدم ذكر المفعول للعلم به - أو لإفادة التعميم ، أى يغشى كل ما فى الكون من ضوء .

ونلحظ أن الفعل فى الآية الأولى كان مضارعا، وفى الآية الثانية أتى ماضيا ، فاختلفت الفاصلتان بالمضى والاستقبال ؛ للدلالة على أنه تعالى لا يجرى عليه زمان، فالمستقبل عنده كالماضى سواء بسواء .

﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) ﴾

أى والذى خلق الذكر والأنثى .

عبر « بما » بدلا من « مَنْ » لقصد التفخيم ، أى أنه القادر العظيم الذى خلق صنفى الذكر والأنثى ، فكأنه أقسم بنفسه تعالى . أو أنه خلق آدم وحواء ، ولكن الظاهر العموم حتى يشمل كل ذكر وكل أنثى ، فإذا كان المراد آدم وحواء فاللام للعهد ، وإن كان المراد العموم فاللام للجنس .

وبين الذكر والأنثى طباق ، وفائدته الشمول ؛ لأن الخلق كله لا يخرج عن كونه إما ذكرا وإما أنثى .

﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ ﴾

بعد أن أقسم بالليل والنهار ، وخلقه للذكر والأنثى ، جاء بجواب القسم : ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ شتى : جمع شتيت ، كمرضى ومريض ، أى عملكم مختلف ، فمنه عمل للجنة ومنه عمل يُدخل النار ، وأكد جواب القسم بإن واللام ، ليفيد حتمية اختلاف أعمال الناس حسب أهوائهم وأحوالهم . وفضل أعمال الناس واختلاف مشاربهم وما يقدمونه لأنفسهم فقال :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾

أى بذل ماله فى وجوه الخير ، واتقى محارم الله ، وصدق بكلمة التوحيد وبالبعث والجنة ، فسنيسر له الإنفاق فى سبيل الله والعمل بطاعته ، ونهيئه ونوفقه للخصال التى تؤدى إلى يسر وراحة ، كدخول الجنة ، ورضوان الله .

نزلت هذه الآيات فى سيدنا أبى بكر الصديق ؛ لأنه اشترى ستة نفر من المؤمنين كانوا فى يد أبى جهل والوليد بن المغيرة ، ومن هؤلاء الذين افتادهم أبو بكر رضى الله عنه - بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ ، وكان المشركون يؤذون هؤلاء المؤمنين حتى يرتدوا عن الإسلام ، فاشتراهم أبو بكر وأعتقهم .

هذه هى أوصاف المؤمنين ، العطاء ، والاتقاء ، والتصديق بالغيبيات فجزاؤهم التيسير لعمل الخيرات .

وفى مقابل ذلك أتى بأوصاف الكافرين :

﴿ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ ﴾

أى بخل بماله فلم يبذله فى سبل الخير ، فحذف ما يتعلق بالفعل للعلم به واختصارا للحديث ، واستغنى عن الأجر والثواب ، وبشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة ، فحذف المتعلق لعمومه ، وحتى تذهب فيه النفس كل مذهب ، من يفعل ذلك نهيئه للخصال العسيرة ، فتبدو له سهلة فيقع فى إثمها ، فيؤديه ذلك إلى النار ، بعد أن جرى الشر على يديه .

يقول الفخر الرازى : لما جعل التيسير مشتركا بين الإعطاء والاتقاء والتصديق ، جعل ضده وهو التعسير مشتركا بين أضداد هذه الأمور وهو المنع

والاستغناء والتكذيب [1] .

ويقول السيوطى فى كتابه « التحبير فى علم التفسير : إن ذلك يختص باسم المقابلة وهو أن يؤتى بمعنيين متوافقين أوأكثر ، ثم بما يقابل ذلك على الترتيب [2] ويذكر هذه الآيات من سورة الليل .

﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ (11) ﴾

أى لا يغنى عنه ماله شيئًا، ماله الذى بخل به ، ومنع إنفاقه فى سبل الخير، فالجملة خبرية .

أو أىّ شىء يغنى عنه إذا تردى ؟ ، فما استفهامية ، فتكون الجملة إنشائية ، قصد بها مجرد الاستفهام . والاستفهام بمعنى الإنكار .

و ﴿إِذَا تَرَدَّى﴾ أى هلك ؛ لأن من يسقط فى هوة سحيقة لا ينتظر سوى الهلاك ، فهو يهوى فى جهنم ، وليس له مفرّ من ذلك .

وتشديد الفعل ﴿تَرَدَّى﴾ يوحى بالعنف والشدة التى تنتظره حين يبخل بماله ويضّن بإنفاقه .

وحذف المفعول به فى الآية ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ أى ما يغنى عنه شيئا ، يقول عبد القاهر الجرجانى عن قيمة الحذف وبلاغته :

هو باب دقيق المسلك ، لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة ، أزيد للإفادة [3].

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ (12) ﴾

إن الله يبغى الهداية للبشر ، ولكن بعضهم لا يريد سوى الضلال ويسعى إليه، فكانت هذه الآية مقررة ومؤكدة لما قبلها .

وتقديم الخبر ﴿ عَلَيْنَا ﴾ يفيد القصر ، أى علينا الهدى وليست على غيرنا .

﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ (13) ﴾

أيضا تفيد القصر والاختصاص أى لنا لا لغيرنا .

---

(1) نهاية الإيجاز ص ٢٨٦ .

(2) نهاية الإيجاز ص ٢٢٨ ، ٣ - الدلائل ص ١٤٦ .

والآخرة والأولى كناية عن الدار الآخرة ، وكناية عن الدنيا الفاتنة .

فلنا كل ما فيهما نتصرف فيه كيف نشاء . وأكد هذا المعنى بإن واللام وتقديم الخبر .

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ ﴾

الإنذار : التخويف ، فقد خوفتكم بتعاليم القرآن ، وأنذرتكم بنار تتوهج وتتوقد .

وأصل ﴿ تَلَظَّى ﴾ تتلظى ، فحذف التاء تخفيفا لوقع الكلمة على اللسان .

ونكر ﴿ نَارًا ﴾ لتعظيمها وبيان أهوالها .

﴿ لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى ﴿١٥﴾ ﴾

لا يكتوى بنارها ولا يلازمها لزوما أبديًا إلا الأشقى الكافر ، ومن يصلاها ويتقد بنارها من العصاة ليس كصلى الكافر ، فاصطلاؤه مؤقت غير دائم ولا مستمر .

فالآية فيها قصر وأداته النفى والاستثناء ، أى لا يصلاها سواه ، ومن عداه من العصاة كأنه لم يصلّها بالنسبة للأشقى الكافر الملازم لها .

وعبر بأفعل التفضيل ﴿ الأَشْقَى ﴾ دون الشقى ؛ لأنه بالغ فى شقوته وتمرده وعصيانه حتى فاق فى أفعاله وكفره كل شقى عاصٍ ، ولذا وصفه بقوله :

﴿ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ ﴾

أى كذب بالحق وأعرض عن الطاعة ، كذب بالقرآن والرسول ، والدعوة إلى الإسلام ، وأعرض بقلبه عن الإيمان ، وبوجهه عن رسول الله ، فالمتعلق محذوف مفهوم من السياق ، يفيد العموم والشمول .

يقول الزمخشرى فى الكشاف : الآية واردة فى الموازنة بين حالتى عظيم من المشركين وعظيم من المؤمنين ... فقيل الأشقى ، وجعله مختصا بالصلى كأن النار لم تخلق إلا له . وقيل الأتقى فى ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى ﴿١٧﴾ ﴾ وجعل مختصا بالنجاة كأن الجنة لم تخلق إلا له ، والمراد بالأشقى : « أبو جهل » وبالأتقى : « أبو بكر الصديق » .

ووصف الأتقى بأنه ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ .

أى ينفق ماله فى الخيرات ويكون عند الله زكيّا ، لا يطلب رياء ولا سمعة ، ينفقه خالصا لوجه الله ، ابتغاء لرضا ربه ، ولا يتصدق بماله ، لأن لبعض الناس فضلا عليه يريد أن يجازيه ويكافئه عنه .

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾

ونكر « أحد » ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ ﴾ أى أحد ليفيد معنى العموم ، ونكر أيضا ﴿ مِن نِّعْمَةٍ ﴾ ليفيد التقليل، حتى ولو كانت نعمة ضئيلة يريد أن يكافئه عنها .

﴿ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

الاستثناء منقطع ؛ لأن ابتغاء وجه ربه نعمة غير النعمة التى تجزى ، أى فعل ذلك ابتغاء وجه ربه الأعلى .

﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾

أى : وتالله سوف يرضى بما نعطيه من الكرامة والجزاء العظيم ، فاللام موطئة للقسم ، وأن رضى الرسول عهد وميثاق على الله أن يكفله له ويحققه لمحبته ووعده له، والقسم من الإنشاء غير الطلبى، وهو لا يخلو من بلاغة التأكيد .

* * *

سورة الضحى مكية

(عدد الآيات ١١ آية نزلت بعد الفجر)

﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) ﴾ .

والضحى أقسم سبحانه وتعالى بالضحى ، والمراد بالضحى : النهار كله على سبيل المجاز .

والمقسم به مضاف مقدر ، أى ورب الضحى .

« والليل إذا سجى » طابق بين الليل إذا سجى والنهار إذا صخب ، فشأن الليل السكون والهدوء ، وشأن النهار الضجة والصخب ، ومعنى سجى : هدأ ، يقال للعين إذا سكن طرفها : ساجية .

« وأل » فى الليل للجنسية ، أى جنس الليل ، وطبعه الذى لا يتغير ولا يتبدل من ليل إلى ليل .

« وسجى الليل » مجاز عقلى علاقته الزمانية ، أى سجى أهله فى زمن الليل .

وفى الضحى إشارة إلى سرور الدنيا وزهوتها .

وفى الليل علامة على هموم الدنيا وثقلها .

وجواب القسم : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ .

ودَّع بالتشديد مبالغة فى الوداع والترك . ولذا عبر بودَّع بدلا من ودع مخففة؛ لأن الوداع : إعلام بالفراق .

﴿ وَمَا قَلَىٰ ﴾ القلى : شدة البغض - أى وما بغضك .

والأصل : وما قلاك ، وحذف المفعول به للفاصلة وموافقة رءوس الآيات ، وهو من أشرف السجع لاعتدال فقراته من ألفاظ قليلة [1] .

(١) لأن الفاصلة تتم بدونه . التبيان ص ١٠٩ ، ٥٠٤ . لابن الزملكانى .

وسبب نزول السورة أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن ثلاثة أشياء : عن قصة أهل الكهف ، وقصة ذى القرنين، وعن الروح . فأخبرهم عن القصتين : قصة أهل الكهف وقصة ذى القرنين ، وأما عن الروح فقال لهم ارجعوا غدا وسأخبركم . ولم يقل إن شاء الله . فاحتبس الوحى ، فقال المشركون إن محمدا ودَّعه ربه وقلاه، فنزلت .

﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ۝٤ ﴾

أى كرامة الآخرة ونعيمها خير من شقاء الدنيا وتعبها .

فالآخرة كناية عن دار الآخرة ، والأولى كناية عن أيام الدنيا [1] .

واللام فى الآخرة جواب لقسم محذوف تقديره : وأقسم أن الآخرة خير من الأولى . فالدنيا مشوبة بالأكدار ، والحياة فيها كأحلام نائم ، أو كظل زائل فهى ليست شيئا بالنسبة للآخرة .

« وخير » أفعل تفضيل لإفادة تعظيمها وتشريفها .

وأل فى « الآخرة » وأل فى « الأولى » للعهد أى الآخرة والدنيا المعهودتان لديكم وتعرفون كلا منهما معرفة حقة .

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ ﴾

المبتدأ محذوف اختصارا أى ولأنت سوف يعطيك ربك ، واللام للابتداء دخلت على الخبر لتأكيد مضمون الجملة. فلام الابتداء تدخل على الجملة الإسمية، وليست لام القسم ؛ لأن لام القسم لا تدخل إلا على المضارع المؤكد بنون التوكيد.

﴿ فَتَرْضَى ﴾ المفعول محذوف ، أى ترضى ما تعطى إياه فيطمئن به قلبك أو يعطيك الفتح فى الدنيا ، والثواب فى الآخرة ، فترضاه .

وعبر بالمضارع فى يعطيك، وترضى ، لتجدد العطاء والرضا حالا بعد حال .

والفاء للتعقيب ، أى تعطى الخير فيعقبه رضاك .

يقول عبد القاهر : إن المفعول مقصود ، وقصده معلوم ، وأنه يحذف من

---

(١) لأن الكناية تترك على أطراف المعانى ظلالا خفيفة يشتغل بها الذهن ، ويعمل فيها الخيال حتى تبرز وتتلون وتتسع ، فيزيد بطريق الإيحاء من دلالة الكلام ...» فن البلاغة ص ١٤ د / عبد القادر حسين .

اللفظ لدليل الحال عليه ... إلا أنك تخفيه ، وأنك لم تذكر الفعل إلا لتثبيت نفس معناه من غير أن تعرض فيه لمفعول »[1] .

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ (٦) ﴾

شرع القرآن فى تعداد ما أفاض الله عليه من نعم ، أى وجدك يتيما لا أبا لك فآواك وجعل لك مأوى تأوى إليه .

الهمزة للإنكار ، ودخلت على النفى « لم » فقررت المنفى على أبلغ وجه ، فكأنه قال : قد وجدك يتيما فآوى .

أى علمك يتيما بلا أبوين ، فوجد بمعنى علم .

ونكر يتيما ؛ لإظهار ضعفه وهوانه على الناس ، ولكن الله حفظه من كيدهم وشرهم .

وجعله يتيما حيث إن الذى ناله من عز وشرف لم يكن بسبب النسب أو ما توارث من مال .

وفى الكشاف للزمخشرى فى قوله ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ .

« ومن بديع التفسير أنه من قولهم : درة يتيمة ، وأن المعنى : ألم يجدك واحدا فى قريش عديم النظير فى العز والشرف ، فآواك فى دار أعدائك ، فكنت بين القوم معصوما محروسا » .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (٧) ﴾

الضلال : بمعنى الغفلة ، فلم يكن محمد ﷺ يدرى ما القرآن ، وما الشرائع ، فهداه الله إليها ، فكان محمد غافلا عن كثير من الأمور التى أطلعه الله عليها ، فتنكير « ضالا » يفيد الكثرة .

وحذف المفعول : أى فهداك ، لرعاية الفاصلة ، والتركيز على الفعل دون التعرض للمفعول .

﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ (٨) ﴾

وجدك فقيرا لا مال لك فأغناك بما أفاء عليك من الغنائم ، حتى كان ﷺ يهب المائة من الإبل .

---

(١) الدلائل ص ١٥٥ - ١٥٦ .

وفى اللغة : عال الرجل يعيل عيلة : إذا افتقر .

ثم أوصاه بالفقراء فقال :

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ (١٠) ﴾

لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيما ، ولا تزجر السائل عن أمور دينه ، أو دنياه فقد كنت غافلا عن ذلك . فلا تنهره ولا تغلظ له فى القول .

« وأل » فى اليتيم وفي السائل تفيد الجنس والاستغراق ، أى لا تقهر أى يتيم، ولا تزجر كل سائل ، فيدخل فى ذلك كل يتيم وسائل .

﴿ فَلا تقهر ﴾ ذكر الفعل وأضمر الفاعل ، وذلك كناية عن تعلقه بالمفعول المحذوف ، أى فلا تقهره ولا تنهره .

وقدم اليتيم ، وقدم السائل ، للاهتمام بشأن كل منهما ، ورعاية لأمره ، وعدم التخلى عنه ومعاونته .

والتزام حرف الهاء قبل الروى فى « تقهر وتنهر » من غير أن يكون ذلك واجبا فى رعاية السجع يدخل تحت باب الإعنات [1] ؛ لما فى ذلك من مشقة على القائل ، إذا كان بشرا ، ولا يشق شىء على الله القادر المعين .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾

أضاف النعمة لرب الكون ، تشريفًا منه لها ، فهى من رحمته وهى كثيرة لا تحصى ، وفيها معنى العموم من غير تخصيص بنوع من أنواعها .

وقدمها على الفعل « فحدّث » مبالغة فى كثرة الحديث عنها .

* * *

(١) نهاية الإيجاز - الرازى ص ١٢٢ .

سورة الشرح مكية

(عدد الآيات ٨ آية، نزلت بعد الضحى)

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢)
الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾

شرح الصدر : فتحه بإبعاد ما يصد عن الإدراك .

والاستفهام ، إذا دخل على النفى قرره ، فيصير المعنى : قد شرحنا لك صدرك .

وإنما خص الصدر بالذكر ؛ لأنه محل الإدراك والعلوم من النفس البشرية . وفيه امتنان على رسول الله ﷺ بفتح صدره وتوسيعه حتى ينهض برسالته .

﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (٢) ﴾

هذه الجملة معطوفة على ما قبلها على المعنى لا على اللفظ ، أى شرحنا لك صدرك ، ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴾ ، والعطف للتوسط بين الكمالين ؛ لاتفاق الجملتين فى الفعل الماضى .

والوزر : الذنب ، أى وضعنا عنك ما سلف منك فى الجاهلية ، وأسقطنا عنك حملك الثقيل . والآية كناية عن عصمته من الذنوب ، وطهره من الأدناس .

وقدم : ﴿ عَنكَ ﴾ ، على ﴿ وِزْرَكَ ﴾ ، لما فيه من تعجيل المسرة ، والتشويق إلى ما جاء بعده من وضع وزره عنه .

﴿ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) ﴾

أنقض ظهرك : أثقله حتى يسمع له صوت من شدة ثقله ، يقول أهل اللغة : أنقض الحمل ظهر الناقة حتى سمع له صرير .

وفى النقض استعارة لثقل الشىء وشدته على الظهر حتى تتخلخل منه العظام .

وكان لرسول الله ﷺ ذنوب قد أثقلته - من باب ترك الأولى - فغفرها الله له ، كتهالكه على إسلام الكافرين المعاندين .

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ ﴾

أى رفعنا ذكرك واسمك فى الدنيا والآخرة ، فما من صلاة أو خطبة إلا ويذكر فيها اسم رسول الله : أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، مقترنا باسم المولى سبحانه .

وقدم لك على ذكرك ، لكمال العناية بشأن رسول الله وأنه قد بلغ الغاية من رضا ربه عليه .

وهذه الآيات الأربع تتسم بالسجع الجميل الذى يثرى الألفاظ اتساقا وحسنا وإبداعا .

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ ﴾

أى أن مع الضيق سعة ، ومع الشدة رخاء ، ومع الكرب فرج .

وفى ذلك تقرير وتأكيد بوعده تعالى بأن كل عسير يتيسر ، وكل شديد يهون، ، وكل صعب يلين .

وجاء لفظ العسر مكررا ومعرفا . ولفظ اليسر مكررا منكرا ؛ فإذا أعيد المعرّف كان الثانى عين الأول ، وإذا أعيد المنكر كان الثانى غير الأول فى المعنى ، ولذا يقول الرسول ﷺ : (لن يغلب عسر يسرين) .

والتنكير فى يسر للتفخيم والتعظيم .

وأل فى العسر للعهد ؛ لأن العسر معلوم معهود فى الدنيا للسامع وهو العسر الذى كانوا فيه ، واليسر مجهول مبهم ، فهى للجنس .

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾ ﴾

إذا تدخل على فعل يفيد الاستقبال ، وهنا دخلت على فعل ماض ، للدلالة على تحقق وقوع الفعل ، فإذا فرغت من صلاتك ، فانصب واجتهد فى دعائك ، والآية غاية فى الإيجاز ، ، لاشتمالها على معانٍ كثيرة ، وألفاظ قليلة .

وإلى ربك وحده دون غيره ، فارغب ، واضرع إليه راغبا فى الجنة راهبا من النار ، وتقديم الجار والمجرور « إلى ربك » يفيد القصر ، أى لا ترغب فى غير الله. ولا تعتمد على أحد سواه .

سورة التين مكية

(عدد الآيات ٨ آيات، نزلت بعد البروج)

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (٣)
لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) ﴾

أقسم سبحانه بالتين الذى يأكله الناس، وبالزيتون الذى يعصرون منه الزيت.

أقسم بالتين ؛ لأنه فاكهة طيبة ، خالصة من شوائب التنغيص ، وسبحان من هيأها على قدر اللقمة . ويقول عنه الأطباء : إنه أنفع الفواكه للبدن ، وأكثرها غذاء وشفاء ، فهو يلين الطبع ، ويحلل البلغم ويطهر الكليتين ، ويزيل ما علق بالمثانة من رمال ، ويدخل فى علاج البواسير ، وينفع فى النقرس .

وأقسم أيضا بالزيتون ؛ لعظم شأنه ، فهو إدام ودواء ، وشجرته هى الشجرة المباركة المذكورة فى القرآن فى قوله تعالى : ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ ﴾ النور آية ٣٥ .

وأقسم بطور سينين ، وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى عليه السلام واسمه جبل الطور ، ومعنى سينين ؛ المبارك ، والصفة بيانية .

وأقسم بهذا الجبل ؛ لأنه بالشام وهى الأرض المقدسة ، وفيها المسجد الأقصى ، وأعظم البركات التى حلت به ووقعت فيه ، تكليم الله لموسى عليه .

﴿ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴾ أى مكة ، وسماه أمينا لأنه آمن ، وفيه الحرم الأمين ، أى الآمن أهله ، أو المأمون فيه من يدخله ، والإشارة هنا تفيد التعظيم والتشريف ، كأنه ماثل أمام الأبصار ، واقع فى قلب كل مؤمن بالله لا يغيب عن الأفئدة ، وتتشوق إليه النفوس كلما حل موعد الحج .

وجواب القسم : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ﴾ والقسم بالام وقد زيادة فى تأكيد عظمة المقسم به وهو خلق الإنسان . وعبر بأفعل التفضيل ، أى أنه فاق فى تقويمه وحسنه كل المخلوقات الأخرى ، فقد خلق كل ذى روح مكبا على وجهه إلا الإنسان ، فقامته معتدلة « وأل » فى الإنسان للجنس والاستغراق ، أى

خلقنا كل إنسان ، فى أحسن صورة وأجمل هيئة متناسب الأعضاء ، فالله خلق آدم على صورته كما يقول المصطفى ﷺ .

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ ﴾

أى رددناه إلى أرذل العمر ، فصار إلى الهرم بعد الشباب ، وإلى الضعف بعد القوة ، فينقص عقله ، ويخرف كالصبيان .

فهو يصير من أسفل السافلين ، والسافلون هم الضعفاء ، والزّمنى والأطفال ، والشيخ الكبير أسفل هؤلاء جميعا ، كما عبر عنه بأفعل التفضيل ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ ﴾ يس ٦٨ فيتقوس ظهره بعد اعتدال ، ويبيض شعره بعد اسوداد ، ويكل سمعه ، ويضعف بصره ، ويتغير منه كل شىء .

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ ﴾

الاستثناء هنا منقطع ، أى لكن الذين آمنوا ... إلخ لأن الردة إلى أرذل العمر ليست خاصة بالمؤمن ؛ بل يدخل فيها الكافر والعاصى أيضا ، فلا يصلح هنا أن يكون الاستثناء متصلا إذ لا معنى له .

﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ قدم الخبر للاهتمام بأمر المؤمنين ومن عمل منهم عملا صالحًا [1] ونكر أجر لتعظيم أجرهم . وغير ممنون : غير مقطوع أى ثواب دائم لا ينقطع .

﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ ﴾

الخطاب للإنسان الكافر ، والاستفهام للتوبيخ والتعجب ، أى : أى شىء يدعوك إلى التكذيب بالبعث والحساب . فالحذف جاء للإيجاز والاختصار ، وهو مفهوم من سياق الآية .

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨ ﴾

فيه وعيد شديد للكفار ، والاستفهام إذا دخل على النفى صار إيجابا أى الله أحكم الحاكمين وأتقن الصانعين ، والذى خلق الإنسان من نطفة قادر لا شك على بعثه وحسابه .

---

(١) والتقديم باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، فإذا راقك الكلام ولطف موقعه عندك ، كان سبب أن راقك ولطف عندك ، أن قدم فيه شىء ، وحول اللفظ من مكان إلى مكان » الدلائل ص ١٠٦ . عبد القاهر .

سورة العلق مكية

(عدد الآيات ١٩ آية، وهى أول ما نزل من القرآن)

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢)
اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾

هذه السورة أول ما نزل من القرآن على سيدنا محمد ﷺ ، وكان يتعبد فى غار حراء ، وحين بلغ الأربعين من عمره ، وفى الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان جاءه جبريل وهو فى الغار ، فقال له ﴿ اقْرَأْ ﴾ ، ثلاث مرات ، والرسول فى كل مرة يجيب : ما أنا بقارئ ، وجبريل يضمه ويعصره ، فيرسله ، ثم قال له :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

الأمر بالقراءة يقتضى مقروءا ، أى اقرأ ما يوحى إليك ، فالمفعول به محذوف للاختصار وضيق المقام .

والباء فى ﴿ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ للاستعانة ، أى اقرأ مستعينا باسم ربك .

﴿ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وصف للرب ، لبيان نعمه وتذكير العباد بها ؛ لأن الخلق من أعظم النعم ، ويترتب عليه سائر النعم .

وحذف المفعول به ، أى : الذى خلق الخلائق كلها . لإفادة العموم . ثم خصص الإنسان بالذكر دون غيره من المخلوقات ، فقال : ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ تشريفا له ؛ ؛ لما فيه من بديع الخلق وعجيب الصنع .

وفيه تفصيل بعد إجمال ، لأن الإنسان ذكر مرة مجملا فى الآية السابقة ، ثم ذكر بنصه فى هذه الآية .

﴿ وأل ﴾ فى الإنسان لإفادة الجنس والاستغراق ، أى خلق كل إنسان .

﴿ مِنْ عَلَق ﴾ الدم الجامد ، ونكر ﴿ عَلَق ﴾ لحقارتها وتفاهتها والقادر على خلق الإنسان قادر لا شك على تعليم القراءة للحى المتكلم، وجملة ﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَق ﴾ جاءت مبينة ومفسرة للجملة السابقة ﴿ الَّذِي خَلَق ﴾ ولذا جاءت بدون واو العطف ، لأن المفسِر والمفسَر شيء واحد فلا يجوز دخول الواو بينهما .

وفى التفسير والبيان بعد الإبهام التفات للذهن وتطلعه لمعرفة ما أبهم أولا ثم فسر ثانيًا .

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) ﴾

كرر الأمر بالقراءة تأكيدا وتقريرا ، وتمهيدا لما يذكر بعدها ، أى افعل ما أمرت به من القراءة .

وَرَبُّكَ الأَكْرَم : جملة مستأنفة لإزاحة ما اعتذر به ﷺ من قوله ما أنا بقارئ؛ لأن القراءة من شأن من يكتب ويقرأ ، وهو أمى .

﴿ الأَكْرَم ﴾ الحليم عن جهل العباد فلا يعجل بعقوبتهم . وهى أفعل تفضيل أى الزائد فى الكرم على كل كريم ، لأنه ينعم ويكرم دون غرض .

﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) ﴾

عبر بالاسم الموصول تنويهًا بشأنه سبحانه ، ولذكره سابقًا بأنه الرب ﴿ وَرَبُّكَ الأَكْرَم ﴾ وتعظيمًا لشأن ما يأتى به من تعليم الإنسان الخط بالقلم ، فالقلم نعمة من الله عز وجل ، مما يدل على كمال كرمه بأن علم عباده ما لم يعلموا ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم .

وفى العبارة حذف مفهوم من السياق ، أى علم الإنسان الكتابة بالقلم ، فالمفعول محذوف لتخصيصه وتعيينه ؛ إذ أن الكتابة لا تتعلم إلا بوسيلة القلم وما يخطه من حروف .

﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾

هذه الآية بدل اشتمال من قوله ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَم ﴾ أى علمه الأمور الكلية والجزئية مما لم يكن يعلمه من قبل .

﴿ وأل ﴾ فى الإنسان تفيد العموم ، أى علم كل إنسان ما لم يعلم حين ولدته أمه .

و«ما» فى قوله ﴿ مَا لَمْ يَعْلَم ﴾ للموصولية ، وجاءت هنا للمبالغة فى بيان جهل الإنسان قبل تعليمه وإدراكه .

وهناك مناسبة عظيمة بين الخلق من العلق ، وبين تعليم القلم ، فأدنى مراتب الإنسان تكوينه من علقة ، وأعلاها كونه عالما ، فانتقاله من دم جامد إلى تعليم العلم طفرة عظيمة امتن بها الله على الإنسان .

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) ﴾

من هذه الآية إلى آخر السورة نزل فى أبى جهل .

كلا ردع وزجر لمن كفر نعمة الله عليه بسبب طغيانه ، ﴿ وأل ﴾ فى الإنسان ، تفيد العهد أى المعهود وهو أبو جهل .

ويطغى يتجاوز الحد ويستكبر على ربه .

وعبر بأن ، وأدخل اللام على الخبر ليفيد تقرير طغيانه واستكباره .

﴿ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾

هذه الآية جاءت علة وسببا فى الآية السابقة ، أى لماذا الإنسان يطغى ؟ أو لماذا يطغى أبو جهل ؟ .

الإجابة ؛ لأنه رأى نفسه مستغنيًا ، ولذا جاءت هذه الآية منفصلة عما قبلها دون حرف العطف .

وحذف المتعلق بالفعل ﴿ اسْتَغْنَىٰ ﴾ أى استغنى بماله وعشيرته وأنصاره . والحذف إيجاز وبراعة فى القول حتى إنه يعد أساس البلاغة العربية كلها، وكان أبو جهل إذا أصاب مالا زاد فى ثيابه ومركبه وطعامه وشرابه ، وذلك طغيانه .

والضمير فى رآه ، يعود على أبى جهل المعبر عنه بالإنسان ،

﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ (٨) ﴾

أى المرجع وقدم الجار والمجرور لإفادة القصر ، أى إلى ربك المرجع وليس إلى أحد سواه .

وعبر بالمصدر ﴿ الرُّجْعَىٰ ﴾ أى أن الله هو المرجع والملاذ ، وكأن يوم الآخرة كله مرجع إلى الله وليس شيئًا آخر ، فالموت والبعث والحساب والجزاء كل ذلك وغيره مرجعه إلى الله سبحانه ، لا إلى غيره أو مشاركا له أحد .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (٩) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (١٠) ﴾

الذى ينهى عبد الله إذا صلى ، هو أبو جهل ، والمراد بالعبد هو محمد ﷺ .

والاستفهام فى ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ للتقبيح من شأن أبى جهل واستنكار ما يفعل . وعبر بالاسم الموصول ﴿ الَّذِي ﴾ استهجانا للتصريح باسمه لأنه تافه حقير عند الله وعند المؤمنين بالله .

وتنكير ﴿ عَبْدًا ﴾ لتعظيم رسوله ورفعة لشأنه .

وإذا تفيد الاستقبال فحقها أن تدخل على فعل المستقبل لا على الفعل الماضى ، ولكنه عبر بالماضى ﴿ صَلَّىٰ ﴾ للدلالة على أن صلاة الرسول ﷺ أمر محقق الوقوع ، بل قد وقع بالفعل .

وعبر بالرؤية البصرية ، ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ بحيث يراه كل من تتأتى منه الرؤية ، أو كأن ذلك شىء ملموس يراه كل مبصر .

﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (١١) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (١٢) ﴾

الاستفهام للتعجب ، والرؤية هنا قلبية بمعنى أخبرنى بذلك الناهى، هل هو على الهدى ، وهل هو يأمر بالتقوى حين يأمر بعبادة الأصنام . وفى ذلك تهكم مرير بشأن الناهى وهو أبو جهل ، لأن عبادة الأصنام ليست فيها من الهدى شىء ، وليس فيها أمر بالتقوى ، وبالتالى ليس فيها هدى البتة .

﴿ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٣) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) ﴾

أى أخبرنى إن كان ذلك الناهى مكذبا للحق، معرضا عن الصواب، والاستفهام هنا فيه معنى الخبر ، والخطاب لكل من يصلح له الخطاب وليس خاصا برسول الله ﷺ .

﴿ اللَّهَ يَرَىٰ (١٤) ﴾ ليست الرؤية جائزة على الله سبحانه لأنه مخالف

للحوادث، والمراد أن يطلع على أحوال ذلك الناهى ، فيجازيه عليها ، فكيف يجرؤ على نهيه رسول الله عن الصلاة .

وتكرار الرؤية ثلاث مرات تفيد تأكيد الكلام وتقريره .

﴿ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (١٥) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) ﴾

كَلا أداة زجر وردع للناهى عن عبادة الله ، وترويج لعبادة الأصنام .

واللام فى آخر كلمة ﴿ لَنَسْفَعًا ﴾ أداة قسم ، أى والله لئن لم ينته لنأخذن بناصيته ونجذبه جذبا شديدا ونسوقه إلى نار جهنم يتلظى فيها .

والنون الأخيرة فى لَنَسْفَعَنْ لتوكيد القسم ، وأن ما أقسم به وهو الأخذ بالناصية واقع على وجه التأكيد .

وقد يكون المراد ليس جذبه من ناصيته فقط ؛ بل جذب جميع جسده وسوقه لجهنم ، فتكون الناصية مجاز مرسل علاقته الجزئية .

وفى التعبير بالناصية نهاية فى الإذلال والمعرة ؛ لأن الأخذ بمقدم شعر الرأس وسحبه للنار يدل عند العرب على الإهانة والتحقير، والعرب تأنف من فعله، وليس بعد ذلك عندهم تحقير آخر .

﴿ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (١٦) ﴾

الناصية لا تكذب ولا تخطئ ، وإنما الكاذب المخطئ هو صاحب الناصية ، وأسند الكذب والخطأ إلى الناصية على سبيل المجاز .

والتعبير باسم الفاعل فى كاذبة خاطئة ، للدلالة على استمرار كذبه وخطئه، وأنه لا يكف عن ارتكاب هاتين الصفتين القبيحتين .

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (١٧) ﴾

أى يدعو أهل النادى ، ورواد المجلس ، فإسناد الفعل إلى النادى مجاز لأن المراد إسناده إلى أهل النادى ، لأن النادى لا يدعى ولا يستجيب إذا دُعى ، والعلاقة المحلية ، من « تسمية الحال باسم المحل » (١) .

---

(١) التبيان ص ٢٢٤ .

﴿ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾

وهم ملائكة غلاظ شداد لا يطاق عذابهم ، والعرب تطلق هذا الاسم على من اشتد بطشه وقهره ، وشبه الزبانية برجال الأمن والشرطة على الاستعارة المكنية .

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾ ﴾

كلا تكرار للزجر والقمع ، فلا تطعه فيما دعاك إليه ، وأمره بالصلاة والدوام عليها ، وعبر بالسجود ﴿ وَاسْجُدْ ﴾ مجازا لعلاقة الجزئية ؛ لأن السجود جزء من الصلاة ، وتقرب إلى الله سبحانه بالعبادة والطاعة .

* * *

سورة القدر مكية

(عدد الآيات ٥ آيات، نزلت بعد عبس)

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ③ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ④ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ⑤ ﴾

ذكر رسول الله ﷺ رجلا من بنى إسرائيل لبس السلاح فى سبيل الله ألف شهر ، فعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله هذه السورة .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ② ﴾

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاه ﴾ ضمير العظمة يعود على الله سبحانه ، فهو الخالق المنزل والهاء فى ﴿ أَنزَلْنَاه ﴾ تعود على القرآن وإن لم يتقدم ذكره ، وشهرته تقوم مقام التصريح به .

وتكون ليلة القدر فى شهر رمضان وهى ليلة مباركة على كل من ينتظرها ويسأل الله فيها .

وسميت ليلة القدر ؛ لأن الله يقدر فيها ما شاء إلى السنة القابلة ، ولعظم قدرها وشرف منزلتها .

وأسند الإنزال إلى الله سبحانه ، مع أنه كان بواسطة الوحى جبريل ، من إسناد الفعل إلى الفاعل المعنوى ، أى أن الله هو المنزل وحده ، ومن عداه تبع له وواسطة ، وليس منزلا حقيقيا .

وعبر بالفعل الماضى ﴿ أَنزَلْنَاه ﴾ أى حكمنا بإنزاله ، وقدرناه فى الأزل ، وقضينا به على وجه الحق والصواب .

والحكمة فى إنزال القرآن ليلا ﴿ لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ لأن أكثر الكرامات ونزول النفحات ، والإسراء إلى السموات يكون بالليل ، وعبادة الليل أفضل من عبادة النهار ؛ لأن حضور قلب الإنسان فيه أجمع ، والعبادة فيه أخشع .

نزل القرآن جملة واحدة فى ليلة القدر من اللوح المحفوظ ، ثم نزل على الرسول ﷺ منجما مفرقا فى ثلاث وعشرين سنة ، وكان ابتداء تنزيله أيضا فى ليلة القدر .

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ ﴾

جاء هذا الاستفهام لتفخيم أمرها ورفعة شأنها ، وليس فى مقدور الخلق مهما قوى إيمانهم أن يدركوا عظمتها ، إذ لا يدركها سوى الله سبحانه .

وذكر ليلة القدر تعظيم لهذا الوقت من الشهر الذى تظهر فيه، وتكرار ﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴾ ثلاث مرات فى السورة إحداها عقب الأخرى يدل دلالة قاطعة أن هذه الليلة أمرها عجيب وقدرها رفيع ، ومن أجل ذلك عبر بالاسم الظاهر بدلا من الضمير إذ أن حقيقة الأسلوب :

إنا أنزلناه فى ليلة القدر ، وما أدراك ما هى ، هى خير من ألف شهر ، فالتعبير بالاسم الظاهر أتى لكمال العناية بها ، والتأكيد على قيمتها .

﴿ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ ﴾

الآية فيها حذف مفهوم من السياق ، تقديره العمل فى ليلة القدر خير من العمل فى ألف شهر ليس فيها ليلة القدر . والحذف جاء لأمن اللبس والاختصار ، والاختصار بلاغة .

هذه الليلة فيها من البركة مالا يعدلها العمل فى ألف شهر ليس من بينها هذه الليلة ، أى العمل التعبدى من صيام وصلاة وقيام وتهجد .

وخير أفعل تفضيل جاء على غير بابه ، أى أعظم قدرا وأكثر أجرا ، من تلك المدة مهما تطاولت ، ومن يأتى بالطاعة فى ليلة القدر ، صار ذا قدر عظيم ومنزلة كبيرة .

وفضل ليلة القدر على ﴿ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ بالتخصيص ، للتكثير ؛ لأن العرب تذكر الألفَ ولا تريد حقيقتها ، وإنما تذكرها للمبالغة فى كثرة الشىء وتعظيمه .

﴿ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ ﴾

تنزل أى تتنزل ، وحذف إحدى التاءين تخفيفا للنطق . أى تهبط الملائكة من

السموات إلى الأرض ، والروح هو جبريل ، وهو من الملائكة ، فذكر مرتين ، مرة حين دخل فى الملائكة ، ومرة ذكر منفردا تعظيما له ، وتشريفا لشأنه .

وهذه الآية مستأنفة لبيان السبب الذى فضلت من أجله ليلة القدر على غيرها . وكأن سائلا يسأل لِمَ فضلت ليلة القدر على غيرها من الليالى ؟ ولِمَ كانت خيرا من ألف شهر ؟

كان الجواب : لأن الملائكة وجبريل ينزلون فيها على الخلق بإذن ربهم، ولذا جاءت الجملة دون حرف عطف ويسمى هذا عند البلاغيين: شبه كمال اتصال.

ونكر ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ أى من كل أمر عظيم وجليل ، للتهويل والتفخيم. أو من كل أمر شائن وحقير ، إبرازاً لضآلته وحقارته .

﴿ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥ ﴾

قدم الخبر لإفادة القصر ، أى ما هى إلا سلام ، لا يحدث فيها إلا النفع والخير ، ولا يستطيع الشيطان أن ينفذ منها ويسوء للخلق ، فهم فى حماية الله ، والشياطين قد سلسلت بالأغلال فى هذه الليلة على الخصوص من شهر رمضان .

﴿ سَلامٌ هِيَ ﴾ والليلة ليست نفس السلامة ؛ بل السلامة تقع فيها ، فهى مجاز عقلى علاقته الظرفية الزمانية .

﴿ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ حتى وقت طلوع الفجر لا ينقطع نزول الملائكة فوجا بعد فوج ، ، بدءا من غروب الشمس .

والسورة كلها وردت فى ثوب من السجع الذى ختمت الآيات فيها بحرف الراء المكسورة ، وسكون ما قبلها باعتبارها من لزوم ما لا يلزم مما يجعل للكلام موسيقى وإيقاعا جميلا مؤثرا فى النفس .

* * *

سورة البينة مكية

(عدد الآيات ٨ آيات، نزلت بعد الطلاق)

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١) رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (٢) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (٣) ﴾

الذين كفروا من أهل الكتاب : هم اليهود والنصارى ، والمشركون : هم مشركو العرب الذين يعبدون الأصنام . ومنفكين : منفصلين متفرقين ، حتى تأتيهم البينة ، المراد بالبينة هو رسول الله ﷺ .

والمعنى إجمالا : إخبار الله تعالى عن الكفار أنهم لم ينتهوا عن كفرهم وشركهم بالله حتى أتاهم محمد ﷺ بالقرآن . والدليل على أن البينة هى رسول الله ﷺ قوله تعالى مفسرًا البينة بأنها ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ والصحف المطهرة هى القرآن الكريم الذى يتلوه الرسول عن ظهر قلب ، وهى مطهرة ، أى منزهة عن الزور مطهرة من الباطل والكفر والشبهات ، وهذه الصحف فيها آيات وأحكام مستقيمة محكمة .

الذين كفروا ، ذكرهم إجمالا ثم فصل وبين فقال من أهل الكتاب والمشركين.

﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ عبر بالمضارع وليس بالماضى باعتبار حال المحكى عنه .

لا الحكاية ، وخص أهل الكتاب بالذكر وإن كان غيرهم مثلهم فى التفرق لأنهم كانوا أهل علم ، فإذا تفرقوا كان غيرهم بالتفرق أولى .

وإسناد الإتيان إلى البينة ليس إسنادا حقيقيا ؛ بل إسنادا مجازيا ، لأن البينة لا يتأتى منها الإيتان ، ولذا وضح البينة بأنها رسول من الله . فالرسول بدل من البينة ، ولذا لم تأت معطوفة على مّا قبلها ؛ لأن البدل والمبدل منه شىء واحد.

ونكر « رسول » للتعظيم والتفخيم لشأن رسوله ، وزاده تشريفا بأنه من الله، وإيذانا بغاية ظهور أمره ، وكونه موعودا بمجيئه فى الكتابين التوراة والإنجيل .

﴿ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ يتلو عن ظهر قلب ، وليس عن كتاب .

والرسول كان أميا لا يقرأ ، فلم يقرأ عن الصحف ، وإنما تلا ما تتضمنه الصحف وأوقع التلاوة على الصحف ، ﴿ يَتْلُو صُحُفًا ﴾ مجازا علاقته المحلية أو المكانية . ووصف الصحف بأنها مطهرة زيادة فى بيانها وإظهارها بأنها منزهة عن الزور ، مطهرة من الباطل .

﴿ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ أى فى تلك الصحف أمور مكتوبة بالحق ناطقة بالصواب. ونكر ﴿ كُتُبٌ ﴾ للتعظيم، ووصفها بأنها قيمة زيادة فى بيان عظم شأنها. وقدم الخبر الجار والمجرور ، ﴿ فِيهَا ﴾ ، على المبتدأ ليس لكون المبتدأ نكرة ، فقد عرف بالوصف وازداد إيضاحا ، وإنما قدم لبيان أن الصحف ، أو الضمير الذى يعود عليها موضع عناية واهتمام .

﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (٤) ﴾

هذه جملة مستأنفة لتوبيخ أهل الكتاب وتقريعهم ، وبيان أن ما نسب إليهم من عدم الانفكاك لم يكن لاشتباه الأمر عليهم ؛ بل كان بعد وضوح الحق ، وظهور الصواب ، بعد مبعث الرسول ونزول القرآن .

وأفرد ذكر أهل الكتاب ، بعد أن كانوا مجتمعين مع المشركين فى الآية الأولى؛ للدلالة على شناعة حالهم ، فهم أهل كتاب ، وعلماء بأمور دينهم ، وجحود العالم أقبح وأشنع من إنكار الجاهل .

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ
وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (٥) ﴾

هذه الآية تفيد التقريع والتوبيخ لتفرقهم بعد مجىء البينة ، وأنهم ما أمروا فى كتبهم إلا لأجل أن يعبدوا الله جاعلين دينهم خالصا له سبحانه . ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ مائلين عن كل الأديان الأخرى ، متجهين إلى دين الإسلام وحده ، والعبادة لجلب المنفعة أو دفع المضرة ليست من قبيل الإخلاص .

ولفظة ﴿ حُنَفَاءَ ﴾ فيها تأكيد للإخلاص ، الذى هو الميل عن الاتجاه الفاسد إلي الاتجاه السليم وحنفاء تؤدى هذا المعنى نفسه .

وذكر إقامة الصلاة ﴿ يُقِيمُوا الصَّلاة ﴾ لأنها العمدة فى باب العبادات البدنية، وإيتاء الزكاة فى قوله ﴿ وَيُؤْتُوا الزَّكَاة ﴾ لأنها العمدة فى باب العبادات المالية .

﴿ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَة ﴾ ذلك إشارة إلى عبادة الله والإخلاص فيها ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، كأنها ماثلة أمام العين المبصرة .

﴿ دِينُ الْقَيِّمَة ﴾ أى دين الملة القيمة ، فالقيمة صفة لموصوف محذوف ، وقد حذف الموصوف اختصارا وإيجازا ولأمن اللبس .

وأضاف الدين إلى القيمة ، وهو صفته ؛ لأن اللفظين مختلفان ، أو من إضافة الشىء إلى نفسه .

وأنث القيمة ، دين القيمة ، والأصل الدين القيم ؛ لأن الآيات هائية ، أو لأن الهاء جاءت للمدح والمبالغة .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) ﴾

﴿ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّم ﴾ أى يصيرون إليها يوم القيامة فهو مجاز مرسل باعتبار ما سيكون ، فهذا مآلهم ومصيرهم .

﴿ أُوْلَئِكَ ﴾ أشار إليهم كأنهم ماثلون أمام الأعين ، ولكنهم مطردون من رحمة الله ، فأشار إليهم باللفظ التى يفيد البعد .

﴿ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ شر الخليقة أعمالا ومصيرا ومقاما .

وتوسط ضمير الفصل بين المبتدأ والخبر ﴿ أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ لإفادة الحصر ، أى هم شر الخليقة دون غيرهم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) ﴾

لما ذكر الكافرين ومصيرهم عقب بذكر المؤمنين وما ينتظرهم من خير وفلاح، والمؤمنون لهم صفات تختلف تماما عن صفات الكافرين، وليس بين الفريقين صفة مشتركة ؛ بل صفات متضادة ، فانفصلت جملة المؤمنين عن جملة الكافرين ولم تعطف عليها .

فالمؤمنون جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح . وذكر مع المشركين دخولهم نار جهنم، وطوى مع المؤمنين ذكر دخولهم الجنة وما ينتظرهم من نعيم أخروى، فالآية فيها إيجاز قِصَر، بمعنى أن تحتوى على معانٍ كثيرة وعبر عنها بألفاظ قليلة.

﴿ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ توسط ضمير الفعل لإفادة القصر ، أى أنهم دون غيرهم المنعوتون بالشرف والفضيلة والخيرية . ولأجل ذلك كان :

﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨) ﴾

المراد بجنات عدن : الكناية عن أفضل الجنات فهى درجات كما أن النار دركات .

و ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ الأنهار لا تجرى وإنما الماء هو الذى يجرى داخل الأنهار ، ، والأنهار مكان للماء ، فهو تعبير مجازى علاقته المكانية .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ لا يخرجون منها ولا يرتحلون عنها. وذكر كلمة ﴿أَبَدًا﴾ لإفادة دوامهم فى النعيم واستقرارهم .

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ جملة مستأنفة لبيان ما تفضل الله به عليهم بعد الجزاء ، وهو الرضوان حيث أطاعوه وامتثلوا لشرائعه .

﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ حيث أباح لهم الخيرات ولاح لهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

هذا كله جزاء الإيمان والعمل الصالح ، فكان لهم الرضوان وحسن الثواب .

* * *

سورة الزلزلة مكية

(عدد الآيات ٨ آيات، نزلت بعد النساء)

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾

نزلت هذه السورة فى رجلين كان أحدهما يأتيه السائل، فيستحى أن يقدم له الثمرة والكسرة لقلتها، وكان الآخر يتهاون بالذنب اليسير ويقول: إنما أوعد الله النار على الكافرين. فنزل قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)﴾ ترغيبا فى الخير ولو كان قليلا ما دام بنية خالصة للعطاء. وتحذيرا من الشر وإن كان قليلا، فإنه يوشك أن يكون عظيما؛ للجراءة فيه على الله .

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١)﴾ إذا حركت أرض تحريكا عنيفا عند قيام الساعة. وإذا شرطية جوابها تحدث أخبارها فى الآية الرابعة.

والزلزال : مصدر جىء به للتأكيد بوقوع الزلزلة التى لا مراء فيها . وليس هو بالزلزلة التى نعرفها ؛ بل هى زلزلة مخصوصة يقتضيها موقف الساعة ، وعظم جرم الأرض .

وتكرار حرف الزاى وحرف اللام ينبئ عن زلزلة مخصوصة استوجبتها حكمة الله وقدرته؛ لما فيه من عنف وقعقعة.

يقول عبد القاهر فى هذه الآية : أثبت الفعل فى ذلك لما لا يثبت له فعل إذا رجعنا إلى المعقول على معنى السبب ، وإلا فمعلوم أن الأرض لا تخرج الكامن فى بطنها من الأثقال، ولكن إذا حدثت فيها الحركة بقدرة الله ظهر ما كنز فيها وأودع جوفها [١].

---

(١) الأسرار عبد القاهر- ط شاكر ٣٨٩، ونهاية الإيجاز ص ١٧٠.

﴿ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾ أى لفظت الأرض ما فى جوفها من الدفائن والأموات ، والميت فى باطن الأرض ثقل لها ، وعلى ظهر الأرض ثقل عليها .

وأسند الإخراج إلى الأرض ، وهى ليست الفاعل الحقيقى ، وإنما المخرج هو الله سبحانه ، فالإسناد إلى الأرض مجاز عقلى علاقته المكانية .

وتكرار لفظ الأرض صريحا ، فعبر بالاسم الظاهر بدلا من الضمير ، زيادة فى تقرير الفعل المنسوب للأرض من زلزلة وإخراج .

والآيتان : إذا زلزلت ، وأخرجت الأرض ، يرتبط إحداهما بالآخر ارتباطا وثيقا ؛ إذ الثانية مسببة عن الأولى ، والإخراج من فعل الزلزلة ، فكان حقها أن تأتى بلاحرف عطف « الواو » نظرا لشدة اتصالهما ، كما يقول البلاغيون ، ولكن الآية جاءت مخالفة لقواعدهم .

﴿ وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ ﴾

﴿أل﴾ فى الإنسان للجنس ، أى كل فرد من أفراد الإنسان قال : ما لها زلزلت ؟ متعجب لما يدهمه من أمرها ، ويبهره من خطبها . لأى شىء زلزلت ، ولأى أمر أخرجت ثقلها ، فهى تقىء أفلاذ كبدها ، وتلفظ دفائن كنوزها .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ ﴾

وحين يكون الأمر كذلك من الأهوال والخطوب تخبر الناس بما عملوا من خير واقترفوا من شر . تخبرهم بلسان حالها على سبيل المجاز ، أو بلسان المقال بما أنطقها الله على سبيل الحقيقة ، فيعجب الإنسان لحديثها .

وحذف المفعول هنا للعلم به ، والتقدير : تحدث الخلق أخبارها والحذف بلاغة واختصارا .

والأرض لا تتحدث ، ولاتنقل الأخبار ، وإنما الكلام مسوق لبيان تهويل ذلك اليوم ، حتى أن الجماد ينطق فيه ، ويحدث الناس بأعمالهم الخيرة والشريرة ، فهو تعبير مجازى .

ولكن قوله بعد ذلك :

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾

يفيد أن حديث الأرض للخلق ونطقها حقيقة ، لأن الله أوحى إليها بالحديث.

وقال ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾ ولم يقل : أوحى إليها ، لموافقة الفواصل واتساقها مع الآيات قبلها ، ولأن العرب تضع « لام » الصفة موضع « إلى » .

﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) ﴾

أى يخرجون من قبورهم إلى موقف حسابهم ، ومن موضع الحساب إلى الجنة أو النار ، فبعضهم آمن وبعضهم خائف ، وبعضهم بيض الوجوه والآخرون سود الوجوه ، وبعضهم ينصرف إلى جهة اليمين ، وبعضهم إلى جهة اليسار ، مع تفرقهم فى الملل واختلافهم فى العمل .

﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ أى ليريهم الله جزاء أعمالهم ؛ لأن العمل لا يرى يوم القيامة ، وإنما يرى جزاؤه ، ثوابه أو عقابه ، فينعم به أو يجأر منه .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾

الذرة : أصغر ما يكون من النمل ، أى من يعمل عملا يكون وزنه قدر حجم النملة الصغيرة من خير أو شر ، لابد أن يرى جزاءه يوم القيامة .

والتنكير فى ﴿خَيْرًا وشَرًّا﴾ للتقليل، أى مهما كان حجمه قليلا لا يعول عليه، فهو عند الله كثير يحاسب عليه.

والتعبير ﴿بمَن يَعْمَل﴾ الأولى ، كناية عن السعداء ، ﴿ومن يعْمَل﴾ الثانية كناية عن البؤساء .

* * *

سورة العاديات مكية

(عدد الآيات ١١ آية ، نزلت بعد العصر)

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (٣) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (٤) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (٥) إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (٦) وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١) ﴾

سبب نزول السورة أن رسول الله ﷺ بعث سرية إلى العدو فأبطأ خبرها على رسول الله ﷺ شهرا، فقال المنافقون إنهم قتلوا، فنزلت السورة إخبارا للنبى عليه السلام بسلامتها، وأشار له بإغارتها على العدو، ونعيا على المرجفين الجاحدين للحق، الحاسدين للمؤمنين.

﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) ﴾

العاديات: الخيل الجارية بسرعة نحو العدو.

ضبحا: مصدر مؤكد للعاديات، لأن الضبح نوع من السير ونوع من العدو. أو مصدر لفعل محذوف، أى تضبح ضبحا، والضبح: صوت أنفاس الخيل إذا عدت، وأصل الضبح للثعلب، فاستعير للخيل، وهو صوت يسمع من أفواه الخيل ينبعث من أجوافها، وهو شىء غير الصهيل والحمحمة.

﴿ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) ﴾

الموريات: هى الخيل حين تورى النار بسنابكها، والإيراء: إخراج النار، وعندما تضرب الخيل بحوافرها وتصك الحجارة، تقدح فينبعث منها الشرر.

وقدحا: مصدر يؤكد معنى الإيراء. فالقدح استعارة لضرب الحجارة بالحوافر، والإبراء بالقدح واقع بالليل، ولا يظهر فى النهار.

﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ ﴾

الخيل التى تغير على العدو وقت الصباح، وأسند الإغارة إلى الخيل وهى لأهلها من الفرسان، فالتعبير بالمجاز العقلى وعلاقته أن الخيل وسيلة وآلة للإغارة، وأنها عمدتهم فى النصر والإفادة.

«وهذه الآيات الثلاث من أشرف ألوان السجع لأنها مؤلفة من ألفاظ قليلة» (١).

﴿ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ ﴾

أى هيجن الغبار فارتفع عن الأرض وجرى فى الهواء، وثار فى وجه العدو.

والنقع: الارتفاع، وسمى نقعا لارتفاعه. وعطف الفعل «أثرن» على الفعل السابق الذى يدل عليه اسم الفاعل، لأنه بمعنى الفعل ويكون المعنى: اللاتى عدون، فأورين، فأغرن، فأثرن به نقعا. والألف واللام فى الصفات تعد من الأسماء الموصولة. وانظر لروعة التعبير القرآنى حين خصص الإثارة بالصبح لأنه وقت الإغارة، كما أن النقع لا يظهر أثره ليلا. «فالموريات قدحا» مع «أثرن به نقعا» تشكل طباقا لطيفا غاية فى الجمال والروعة.

﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ ﴾

فصاروا بخيلهم وسط الأعداء يشتتون جموعهم.

والفاء فى المواضع الأربعة تفيد ترتيب كل منها على ما قبلها، وتنظمه فى سلكه، فتوسط الجمع مترتب على الإثارة، والإثارة مترتبة على الإغارة، والإغارة مترتبة على الإيراء، والإيراء مرتب على العدو، فالنسق فى النظم يدل على هذا الترتيب، كحلقات يتصل بعضها ببعض، ولو عبر القرآن بغير الفاء التى تفيد الترتيب والتعقيب لتغير المعنى بتغير النظم.

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾

---

(١) التبيان ص ٥٠٤.

هذه الآية فيها من التأكيد ما لا مزيد عليه «إن واسمية الجملة ودخول اللام على الخبر (لكنود)» فهى جواب قسم.

وليس المراد بالإنسان العموم، وإنما بعض أفراده، فهو مجاز مرسل علاقته العموم، فليس كل الناس يكفر بنعمة ربه، والكنود: الكافر بالنعمة، الجاحد للحق.

وأخر الخبر «لكنود» رعاية لما يأتى بعدها من فواصل الآيات، فهى مختومة بالدال، ولو قدم الخبر ووضع فى موضعه، لفقدنا الفاصلة القرآنية ورعايتها، وأصبح عطلا من الزينة اللفظية التى تؤثر فى حسن الكلام تأثيرا إيجابيا.

﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ (٧) ﴾

إن الإنسان على كنوده لشهيد على نفسه، فأثر الكفر والحسد، وجحوده للحق، يظهر ولا يمكن إخفاؤه.

وعبر بالاسم الإشارة «ذلك» كأنه حاضر مشاهد لا يمكن إنكاره، ولا أدل على مشاهدته من الإشارة إليه، والشهادة تكون بلسان الحال لا بلسان المقال.

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) ﴾

أى لحب المال لقوى مجد فى طلبه، متهالك فى تحصيله.

وعبر عن المال بالخير، لكثرة ملابسته له، فالمال قد يكون خيرا، وقد يأتى شرا، ولكن الناس يجدونه خيرا فسماه خيرا.

وبين لشهيد ولشديد تجنيس لاحق، لأن الاختلاف بحرفين غير متقاربين فى المخرج (١). والآية كناية عن بخله وحبه للمال حبا جما.

﴿ أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) ﴾

الاستفهام للإنكار، والفاء معطوفة على فعل مقدر يقتضيه المقام: أى يفعل ما يفعل من القبائح فلا يعلم إذا بعثر.

«بعثر ما فى القبور» أى نثر ما فيها من الموتى وأخرجوا من قبورهم.

---

(١) نهاية الإيجاز - الرازى ص ١٢٩، والتبيان ص ٤٨٤. لابن الزملكان.

ورغم أن فى القبور من الموتى آدميين إلا أنه عبر «بما» التى تدل على غير العاقل؛ لأنهم فى هذه الحال بمنزلة غير العقلاء.

﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) ﴾

وميز ما فى الصدور من خير وشر، وكشف عما فيها من نفاق ومعصية. وعبر بالصدور وأراد القلوب مجازا؛ إذ القلوب تحل فى الصدور والصدور محل لها.

﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١) ﴾

خبير لا تخفى عليه خافية فيجازيهم بمثل أفعالهم من خير أو شر.

والتعبير هنا بضمير المخاطب للعقلاء، وفى الآية السابقة عبر بما لغير العقلاء؛ لتفاوتهم فى الحالين، فحين كانوا فى القبور كانوا كالجمادات بلا عقل، بخلاف الحالة الثانية، فقد كانت وقت الحشر حين أوقظوا من قبورهم.

* * *

سورة القارعة مكية

(عدد الآيات ١١ آية، نزلت بعد قريش)

﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾

هذه السورة فيها وصف ليوم القيامة والتهويل من شأنه، وغرابة أحوال الناس فيها، وتغير الكائنات، وإزلاف المتقين إلى الجنة، ومصير الكافرين إلى النار.

﴿ الْقَارِعَةُ (١) ﴾

القارعة من أسماء القيامة، وسميت بهذا الاسم لأنها تقرع القلوب بالفزع، وتقرع أعداء الدين بالعذاب، وتخرج الأجرام عن أحوالها، وتصير إلى أحوال أخرى.

والعرب تقول: قرعتهم القارعة إذا وقع بهم أمر شديد. والقارعة مبتدأ وخبرها:

﴿ مَا الْقَارِعَةُ (٢) ﴾

والاستفهام للتعظيم لشأنها، وعبر بالاسم الظاهر وكان حقه الإضمار، فيقول القارعة ما هى؟ زيادة فى التهويل والترويع. فشأن القارعة عظيم لا تدركه الأفهام ولا تحده العلوم.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) ﴾

أى ماهى وما كنهها؟ وفى ذلك تأكيد لشدة هولها ومزيد فظاعتها، فهى خارجة عن طوق البشر، ولا تستطيع أفهامهم القاصرة أن تحيط بها علما.

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) ﴾

. فصلت هذه الجملة عن الجملة السابقة؛ لأنها بمنزلة الجواب عن سؤال، متى تكون القارعة؟ والجواب: (يوم يكون الناس) أى تقرعهم القارعة يوم يكون الناس كالفراش، والفراش: الطير الذى يحوم حول السراج فيتساقط فى النار، فهو حقير ذليل. فيكون الناس فى هذا اليوم كالفراش المبثوث المفرق فى الكثرة والانتشار والتطاير إلى الداعى كتطاير الفراش إلى النار. وهكذا شأن الناس، تختلف جهات حركاتهم من شدة الفزع فيذهب كل واحد إلى جهة غير الجهة التى يذهب إليها غيره، كالفراش فى اختلاف جهاتها إذا طارت، وهو من تشبيه الأمر الحسى بالأمر الحسى.

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥) ﴾

والعهن: الصوف الملون بالألوان المختلفة، المندوف فى تفرق أجزائه وتطايره فى الجو. وهو تشبيه رائع حيث شبه الجبال المتماسكة الأجزاء، الثابتة المستقرة التى لا تؤثر فيها الأنواء، وهى تصير يوم القيامة كالصوف المندوف الذى يتطاير فى الهواء، لأقل نسمة، وفى ذلك دلالة باهرة على قدرة الله العظيمة.

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) ﴾

الموازين: جمع موزون، وهو العمل الجليل الذى له وزن وخطر عند الله، وعبر بالجمع «موازين» وليس بالمفرد «ميزان» لأن لكل حادثة ميزاناً، والحوادث التى قام بها المؤمن جمة.

(فى عيشة راضية) عبر باسم الفاعل راضية، وهى مسندة إلى ضمير اسم المفعول، أى عيشة مرضية، فهى مجاز عقلى علاقته المفعولية.

والتعبير «بفى» الظرفية يفيد الانغماس الكامل فى هذه المعيشة المرضية، والعيشة المرضية: السهلة اللينة، التى لا مشقة فيها ولا نصب.

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) ﴾

أى رجحت سيئاته على حسناته، أو لم تكن له حسنات أصلا، «فأمه هاوية» فمسكنه جهنم، وسماها بالأم، لأنه يأوى إليها كما كان يأوى إلى أمه وهو فى حاجة

إليـهـا، وهو أسلوب ينم عن التـهكم المرير. أو أن النار تحـيط به إحـاطة رحم الأم بالولد.

وسميت الجحيم بالهاوية، لأنها يهوى فيها ويستقر فى قعرها البعيد، فهى غاية فى البعد والعمق.

والتعبير بلفظ الثقل والخفة فى ميزان المؤمن والكافر، يشير إلى اشتراكهما فى فعل السيئات، إلا أنها قليلة عند المؤمنين، عديدة عند الكافرين.

وفى التعبير بكلمة «هاوية» فيها إشعار بأنه يهوى فى جهنم على أم رأسه، زيادة فى التقريع وانتظار العذاب المهين.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) ﴾

الاستفهام جاء هنا لتهويل الأمر وتفظيعه، فالنار خارجة عن كل ما ألفه الناس وعرفوه، فهى نوع من النار لم يدركوه من قبل، ولم يسبق لهم أن اكتووا بلفح سعيرها قط.

﴿ نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾

أى: هى نار حامية، وحذف المبتدأ هنا لضيق المقام عند ذكره، فالمقام مقام عذاب واصطلاء والأمور يدفع بعضها بعضا، ولا وقت للاسترسال فى الحديث (١).

والسجع فى السورة بشقيه. المتوازن والمألوف يكثر فى السور المكية زيادة فى الإيقاع والتأثير.

* * *

---

(١) حذف المسند إليه هنا لاعتبار مناسب يهدى إليه العقل السليم والطبع المستقيم وقيام القرينة شرط فيه .. الإيضاح الخطيب القزوينى ط عبد القادر حسين ص ٦٣ أو كما يقول الطيبى حذف المسند إليه للتعويل على أقوى الدليلين من الفعل» التبيان ٥٤.

سورة التكاثر مكية

(عدد الآيات ٨ آيات ، نزلت بعد الكوثر)

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝٨ ﴾

هذه السورة نزلت فى قبيلتين من قبائل الأنصار تفاخروا وتكاثروا، تفاخروا بالأحياء، ثم انطلقوا إلى القبور، يشير كل فريق إلى قبر من قبورهم، ويقولون: هل لهم مثل فلان؟ فنزلت السورة.

﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ ﴾

أى شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد وتفاخرتم بكثرتهم، حتى أدرككم الموت وأنتم على هذه الحال من التفاخر والتكاثر، وقالت كل قبيلة: نحن أوفى سؤددا وأعز عزيزا وأكثر نفرا، وأعظم عدداً، ولم تكتفوا بذلك حيت تكاثرتم بالأموات وتفاخرتم بهم.

ولم يذكر التنزيل ماذا تكاثروا فيه، وحذف الملهى عنه، تعظيما ومبالغة لأمره، حتى تذهب فيه النفس كل مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، مثل ألهاكم التكاثر عن ذكر الله، وعن الواجبات الدينية.

وعرف التكاثر «بأل» التى للعهد، العهد المذموم، وهو التكاثر فى الأمور الدنيوية الفانية. كالتفاخر بالمال والجاه والسلطان والأقارب. أما التكاثر بالأمور الدينية فمرغوب محبوب كالتفاخر بالعلم والعمل والأخلاق ونحو ذلك.

﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢ ﴾

أى شغلكم التكاثر عن طاعة الله حتى افتخرتم بالأموات. فعبر بزيارة القبور

وأراد ذكر الموتى كناية عنهم، تهكما بهم، لأن زيارة القبور رخص بها لما فيه من اعتبار الموت، ورفض حب الدنيا والتفاخر، ولكنهم عكسوا الأمر، حيث جعلوا زيارة القبور لمزيد من الاستغراق فى التفاخر بالكثرة.

وفى الآية إشارة دقيقة إلى أنهم سيبعثون؛ لأن الزائر مرتحل غير مقيم، والأموات سيرحلون من قبورهم إلى الجنة أو النار.

﴿ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ﴾

ردع وزجر لهم عن التكاثر والتفاخر بالعدد، وفى ذلك ما فيه من الوعيد الشديد. فليس الأمر على ما أنتم عليه من التكاثر والتفاخر. «تعلمون» العلم هنا بمعنى المعرفة فقدر مفعول واحد، أى تعلمون إنذارى وتخويفى لصنيعكم.

﴿ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) ﴾

تكرار للآية السابقة على وجه التغليظ والتأكيد، فهو وعيد بعد وعيد، أراد أن يكرر لهم الردع والإنذار.

والتعبير بثم فيه دلالة على أن الثانى أبلغ من الأول، لما فيه من توكيد خلا منه الأول وهو التكرار، وثم تدل على البعد الزمنى، فجعل البعد الزمنى بمثابة البعد فى المنزلة، فاستعمال «ثم» يدل على التدرج فى الارتقاء. أو أن المراد بالآية الأولى ما يحدث عن الموت، والثانية ما يحدث عن النشور، وبينهما فاصل زمنى كبير، وعلى هذا فلا تكرار فى الآيتين، واستعملت «ثم» فى معناها من الترتيب والتراخى لتباعد ما بين الموت والنشور.

﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) ﴾

أى لو تعلمون الأمر الذى تصيرون إليه علما يقينيا، كما علمتم الأمور المتيقنة فى حياتكم. فكلا: تكرار للتنبيه والتأكيد، وجواب لو محذوف، أى لشغلكم ذلك عن التكاثر.

وحذف جواب «لو» للتهويل حتى يذهب فيه الوهم كل مذهب ممكن.

﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ⟨٦⟩ ﴾

جواب قسم مضمر أكد به الوعيد.

وفى ذلك تأكيد لرؤيتهم الجحيم رأى العين، وأنها لا تغيب عنهم أصلا، وأنتم تنظرون إليها دوما، وفى ذلك ترهيب شديد من النار ورؤيتها، واطلاعهم على غلظها وقسوتها، مما يوحى بدوام بقائهم فى النار.

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ⟨٧⟩ ﴾

أى الرؤية التى هى نفس اليقين، من المشاهدة، أى ترونها وأنتم بعيدون عنها وتشاهدونها وأنتم قريبون منها وتدعون إليها دعًا.

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⟨٨⟩ ﴾

أى تسألون عن نعيم الدنيا الذى ألهاكم عن العمل للآخرة. تسألون عن شبع بطونكم، وبرد شرابكم، وظلال مساكنكم، ولذة نومكم.

ودخلت «أل» على النعيم، للجنس أو الاستغراق، أى يسألون عن كل نعيم ذاقوه فى الدنيا. والسؤال هنا أريد به التخصيص بمن عكف على استيفاء اللذات، وبرم أمور الدين، وغفل عنها.

وفى الآيتين الأولى والثانية سجع، وفى الثالثة والرابعة سجع أيضا، وفى الآيات الثلاث الأخيرة سجع متوازن، لاتفاقها فى الوزن دون الحرف الأخير.

هذا الإيقاع الموسيقى الذى يجعل أسلوب الكلام مؤثرا، ومذاقه حلوا.

* * *

سورة العصر مكية

(عدد الآيات ثلاث آيات، نزلت بعد الشرح)

﴿ وَالْعَصْرِ ① ﴾

أقسم سبحانه بالعصر، وهو الدهر كله ليلا ونهارا، لما فيه من العبر، التى يحار فيها المرء، وما يلاقيه من مسرة أو هول.

ولما فيه أيضا من دلالة بينة على الصانع القادر. أو أن المراد صلاة العصر، وهى الصلاة الوسطى التى أمرنا سبحانه بالمحافظة عليها.

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② ﴾

هذا جواب القسم، والخسر: هو النقصان وذهاب المال.

فكل إنسان ينفق عمره فى أعمال الدنيا لفى ضلال عن الحق حتى يموت، وسر الوعيد أن التكليف فى أداء صلاة العصر أشق؛ لتهافت الناس فى تجاراتهم ومكاسبهم، واشتغالهم بمعايشهم آخر النهار، لبرودة الهواء لاسيما فى أرض الحجاز، فالكسب مع السهو عن الصلاة فى حكم الخسران لا محالة.

وأل فى «الإنسان» تفيد الجنس والاستغراق، وفيها معنى العموم. «لفى خسر» وجود اللام يفيد زيادة التوكيد، فاشتملت هذه الجملة على ثلاثة تأكيدات، إن، واسمية الجملة ودخول اللام.

وتنكير «خسر» للتفخيم، أى فى خسران عظيم، أو للتنويع، أى: نوع من الخسران غير ما يتعارفه الناس. والقسم بالشىء، يدل على تعظيم، فإذا أضيف إليه الخسران، اتسم بالخذلان.

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③ ﴾

بعد أن ذكر الإنسان على العموم وقد حاق به الخسران، استثنى منه من كانت صفته الإيمان اليقينى، وجمع معه العمل الصالح والخير الباقى، فربح فى تجارته التى لن تبور؛ لأنه عمل للآخرة ولم تشغله أعمال الدنيا.

«وتواصوا بالحق» أى وصى بعضهم بعضا بالقرآن والعمل به، وعبر بالحق وأراد القرآن، لأن الحق من صفات القرآن ولازم له، فهو مجاز علاقته اللزوم.

«وتواصوا بالصبر» أى بالصبر عن معاصى الله سبحانه، والصبر على فرائضه. وجعل الصبر قرينا للتواصى بالحق، لما فيه من دلالة على عظم قدر الصبر وفخامة شرفه.

والتواصى بالصبر يندرج تحت قوله وتواصوا بالحق، وأفرده بالذكر؛ لإبراز كمال الاعتناء بشأنه، ومزيد شرفه وارتفاع طبقته.

وانظر إلى تناسق الآيات حيث عطف الفعل الماضى على الماضى.

«أمنوا وعملوا الصالحات» «وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».

والسجع فى الآيات الثلاث حيث ختم كلا منها بالراء المكسورة، بل فيها أيضا لزوم ما لا يلزم حيث جعل قبل الراء فى كل آية، حرفا ساكنا.

كل هذا يدخل فى بديع الكلام واتساقه وحسن تناوله، فيسرى فى النفس مسرى النسمة الرقيقة بعد الحرارة اللافحة، فالوعيد القارع أعقبه بالثواب الوافر.

ومن أحسن السجع ما جاء فى هذه السورة، لأن الآية الأولى قصيرة، ثم طالت الثانية، وازدادت الثالثة طولا، لأن السجع إذا استوفى أمده من الأولى، ثم جاءت الثانية دونها صارت كالشىء المبتور» [1].

* * *

---

(١) التبيان ص ٥٠٤ ، ٥٠٥.

سورة الهمزة مكية

(عدد الآيات ٩ آيات، نزلت بعد القيامة)

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (٣) كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (٤) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (٧) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩) ﴾

هذه السورة نزلت فى الأخنس بن شريق، أو فى الوليد بن المغيرة، والأصح أنها عامة فى كل ما يحدث من الهمز واللمز.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (١) ﴾

الويل: الخزى والعذاب. مرفوع بالابتداء، والذى سوغ الابتداء بالنكرة كونه دعاء عليهم.

والهمزة: الذى يغتاب الرجل فى وجهه، واللمزة الذى يغتابه من وراء ظهره، وهما رذيلتان يتضمنان الأذى، وطلب الترفع على الناس لأن صاحبهما لا يجد فضيلة فى نفسه، فينسب النقص والرذيلة للغير حتى يظهر فضله عليهم.

وبين همزة ولمزة جناس لاحق لأن الكلمتين اختلفتا فى الحرف الأول، مع عدم تقارب المخرج [١].

﴿ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ (٢) ﴾

جاءت هذه الجملة دون عطف؛ لأنها بدل من الجملة الأولى، ويمكن أن تحل محلها، فحذفت الواو لشدة اتصال الثانية بالأولى.

وفى هذه الجملة معنى الذم، وهى علة وسبب فى الهمز واللمز، فهو معجب بما جمع من المال، وظن أنه الأفضل فيستنقص غيره فيهمزه ويلمزه.

(١) التبيان للطيبى ص ٤٨٤.

وتنكير لفظة «مالا» للتكثير والتعظيم، أى جمع مالا وفيرا كثيرا وعظيما. «وعدّده» التشديد يدل على التكثير، وهو جمع الشىء بعد الشىء، وتعديده مرة بعد مرة. وحذف ما يتعلق به، إذ المعنى: عدده لنوائب الدهر، أو عدده لمن يرثه قصدا للذم على جمع المال، والإمساك به خشية الإنفاق.

فالويل والهلاك لكل من تسول له نفسه جمع المال وعدم إنفاقه على سبل الخير.

﴿ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ ﴾

جملة مستأنفة تفيد تقرير الكلام السابق؛ لأنه ظن أن ماله يزيد فى عمره، ويجعله خالدا لا يموت. وعدل عن الضمير إلى الاسم الظاهر «يحسب أن ماله» وسبق ذكر كلمة المال فى الآية السابقة «الذى جمع مالا» تقريعا له وتوبيخا لجمع ماله وعدم إنفاقه.

وفى ذلك أيضا تعريض بفساد المال الذى جمعه وحافظ عليه بهذه الصورة، فالعمل الصالح هو الذى يخلد صاحبه، وليس المال الذى يجمعه. وعبر بالفعل الماضى «أخلده» ولم يعبر بالمضارع فيقول «يخلده» لأنه اعتبر أن ماله قد ضمن له الخلود والأمان من الموت؛ بل أصبح فى حكم الأمر المفروغ منه.

﴿ كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ ﴾

«كلا» ردع له عن ذلك الحسبان الباطل.

«لينبذن» جواب قسم محذوف، أى والله ليطرحن فى النار وليلقين فى جوفها، والمعنى: لينبذن ماله أو بدنه أو روحه، فحذف المفعول، تهويلا وتفظيعا، ولكى تذهب فيه النفس كل مذهب فتتخيل ما حذف من إلقاء ونبذ.

والحطمة: النار، وسميت حطمة، لأنها تحطم كل ما يلقى فيها وتهشمه. فقد كان يهمز ويلمز ويحطم أعراض الناس، فالنبذ فى الحطمة جزاء وفاقا لهمزه ولمزه.

وفى «ينبذن» استعارة، حيث شبههم بحصيات تافهة القدر يأخذهن المرء

فى كفه فيطرحهن فى البحر، بجامع الحقارة والمهانة فى كل من المستعار منه والمستعار لـه.

﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) ﴾

هذا الاستفهام للتهويل والتفظيع حتى كأنها شىء لا يخطر على البال، ولا تدركه الأفهام.

﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (٦) ﴾

أى هى نار الله، والمبتدأ محذوف اختصارا للعلم به.

وإضافة النار إلى الله لتفخيمها وأنها ليست مثل النيران المعتادة التى ألفها الناس، وإنما هى نار خاصة بالعذاب الأخروى لا تضارعها نار أخرى.

﴿ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ (٧) ﴾

أى تغشى القلوب وتصل إلى الأفئدة، فالفؤاد وسط القلب، أى أن النار تهشم العظم وتأكل اللحم، فتصل إلى الصدور وتستولى على الأفئدة.

وخص الأفئدة بالذكر مع أنها تغشى جميع أعضاء الجسم، لأن الفؤاد محل العقائد الزائفة، فتعلم ما يستحقه كل منهم من العذاب، فهو تعبير مجازى قصد به الجزء والخصوص. كما أن الفؤاد ألطف ما فى الجسد وأشد تألما، فإذا اطلعت النار علي الفؤاد كان من باب أولى اطلاعها على جميع البدن.

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (٨) ﴾

أى مطبقة أبوابها عليهم تأكيداً ليأسهم من الهروب، ويقينهم بالحبس الأبدى فيتلظون بنارها، وهذه الأبواب قد شدت بأوتاد من حديد فلا يفتح لهم باب، ولا تدخل عليهم روح. وقدم المجرور على الخبر «عليهم» للاهتمام بأمرهم، وشدة ما يلقون من العذاب.

﴿ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (٩) ﴾

أى هم فى عمد، فالمبتدأ محذوف على سبيل الاختصار، والعمد: الأغلال والقيود وهى من وسائل التعذيب فى جهنم.

ووصف العمد بأنها ممددة لبيان غلظها وقسوتها، فالعمد الممددة، هى المطولة، ولاشك أنها أرسخ وأقوى من القصيرة.

* * *

سورة الفيل مكية

(عدد الآيات ٥ آيات ، نزلت بعد الكافرون)

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾

قدم أبرهة الأشرم من اليمن يريد غزو مكة، وهدم بيت الله الحرام، وسمى الأشرم، لأنه ضرب برمح على جبهته فشرمت حاجبه وأنفه وعينه وشفتيه، فلذلك سمى أبرهة الأشرم.

فأرسل الله عليه طيرا أبابيل أى مجتمعة، لها خراطيم تحمل حصاة فى منقارها وحصاتين فى رجليها، ترسل الواحدة على رأس الرجل فيتساقط لحمه ويسيل ودمه ويبقى عظاما خاوية لا لحم فيها ولا جلد ولا دم.

هذه هى قصة أصحاب الفيل ذكرناها إجمالا وسنذكرها تفصيلا بعون الله. والمقصود من ذكر القصة تسلية رسول الله ﷺ بأن جزاء من يظلمه جزاء من قصد الكعبة وأراد بها شرا، فهى بمثابة التهديد لمن يكفر بمحمد ويناوئ دعوته.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾

أى قد علمت يا محمد، فالخطاب لرسول الله، أو علم الناس الموجودين فى عصرك ومن بعدهم، فيكون الخطاب عاما لكل من يصلح له الخطاب. ما بلغكم بطريق التواتر من قصة أصحاب الفيل وماذا فعل الله بهم فما لكم لا تؤمنون.

فالهمزة فى قوله «ألم تر» للاستفهام التقريرى، كأنهم قالوا بلى رأينا وعلمنا ما فعل ربنا بأصحاب الفيل. أو المراد بالاستفهام تعجب النبى ﷺ بما فعله الله بهم عندما قصدوا تخريب الكعبة.

وكيف استفهام تقريرى أيضا، أى لقد خبرت أمرهم ووقفت على حقيقته،

وقد كان ذلك حقيقة لا جدال فيها ولا شك فى وقوعها، ولذا عبر بالفعل الماضى «كيف فعل».

وأضاف لفظ الرب لرسوله تشريفا لنبيه محمد ﷺ (ربك) وإضافة الأصحاب إلى الفيل، تعيينا لهم حيث عرفوا بالفيل لأنه كان ذا هيئة جسيمة غريبة عليهم حيث كانوا يروون أنه ذو لون أبيض على خلاف لون الفيلة.

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) ﴾

والكيد: إرادة المضرة بالغير؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشا بالسبى والقتل، ويكيدوا للبيت بالتخريب والهدم. فجعل الله كيدهم فى ضلال حيث لم يستطيعوا أن يلحقوا ضررا بالكعبة بيت الله الحرام.

فالهمزة هنا (ألم يجعل) للتقرير، كأنه قال قد جعل كيدهم فى ضلال.

وانظر إلى حرف الجر الذى يفيد الظرفية ودخوله على ما لا يصلح دخولها عليه إلا على سبيل المجاز، لأن الضلال أمر معنوى لاحسى فكيف يتأتى دخول الظرف عليه؟

دخل الظرف على المعنوى، بتشبيهه بالأمر الحسى حتى يصح دخول الظرف فيه، فكأن الضلال قد استغرق كيدهم واحتواه من كل جانب، وأصبح الكيد غارقا فى ضلالهم.

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) ﴾

معطوف على الجملة السابقة: «ألم يجعل كيدهم فى تضليل»، فكان المعنى عدم إنكار إرسال الطير عليهم، بل تقريره وتأكيد حدوثه.

(عليهم) تفيد وقوع الطير عليهم من فوقهم، فكان عنصر المفاجأة عليهم عنيفا قويا لم يستطيعوا أن يتهيأوا له، على فرض إمكان قدرتهم على الاستعداد لمواجهته. ونكر «طيرا» ليفيد كثرتها وقوتها وعظم شأنها.

و(أبابيل) أى جماعات تأتى من جهات متفرقة فوجا بعد فوج يتبع بعضها بعضاً. وأبابيل جمع لا واحد له من لفظه كما يقول الفراء والواحدى. وهى طير

سود جاءت من قبل السماء فوجا بعد فوج وفى منقار كل طائر حجر أكبر من الحمصة، وفى رجليها حجران لا يصيب الحجر أحداً إلا حطمه.

وهنا تشبيه فيه شيء من الخفاء، لأن الأبابيل هى الحزم الكبيرة، واحدها حزمة، شبهت بها الجماعة من الطير فى تضامها واقتراب بعضها من بعض وتجمعها فى صعيد واحد.

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) ﴾

صفة أخرى للطير، والسجيل: هى حجارة من طين طبخت بنار جهنم مكتوب فيها أسماء القوم الهالكين.

أو من «سجيل» من السماء، وهى الحجارة التى نزلت على قوم لوط.

كانت ترميهم بالحجارة، فإذا أصاب أحدهم حجر منها أصيب بالجدرى.

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾

شبه القرآن حالة أصحاب الفيل إذا أصابهم حجر من الطير حيث جعلهم كروث البهائم الذى تلفظه من أسفل. فشبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه. وفى هذا من الذم لهم وتحقيرهم الشأو البعيد.

و«العصف المأكول» هو ورق الزرع الذى دبت فيه الديدان، فسمى عصفا؛ لأن شأنه أن يقطع فتعصف به الرياح، فتذهب به فى كل اتجاه.

أو كعصف مأكول الحب، شبههم بزرع أكل حبه، فى ذهاب أرواحهم وبقاء أجسادهم، وتشويه أحوالهم.

والمراد بالعصف المأكول الكناية حيث عبر بلفظة المأكول وأراد بها ما تسترجعه البهائم إذا عافت طعامها، مراعاة لحسن الأدب فى الحديث واستهجانا لذكر كلمة الرجيع، فدأب القرآن العدول عن اللفظ الهابط. إلى اللفظ الذى لا يخدش الطبع السليم.

* * *

سورة قريش مكية

(عدد الآيات ٤ آيات، نزلت بعد التين)

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾

أول هذه السورة متصل بآخر سورة الفيل التى قبلها، «فجعلهم كعصف مأكول» أى جعل جيش أبرهة كروث البهائم فى تمزيقه وجعله نتفا صغيرة. أو متصلة بقوله تعالى من هذه السورة «فليعبدوا رب هذا البيت».

والمعنى: أن نعم الله تعالى على أهل مكة عديدة غير محصورة؛ فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، حيث أهلك أهل الفيل، فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة، هى نعمة هذا البيت العظيم الذى يعيشون حوله وفى كنفه.

تقول ألفت الشىء: لزمته ودمت عليه، وضد الإيلاف؛ الإيحاش. فالناس إذا تسامعوا بإهلاك أبرهة الحبشى وجيشه، والحفاظ على بيت الله الحرام دون أن يستطيعوا هدمه كما أرادوا، تهيبوا لقريش زيادة تهيب، واحترموهم فضل احترام، فلا يجترئ عليهم أحد، وعندئذ ينتظم لهم الأمن فى رحلة الشتاء ورحلة الصيف.

وقريش هم ولد النضر بن كنانة، فكل من ولد النضر فهو قريشى، ومن لم يلده النضر فليس بقريشى.

وقريش تصغير قرش، وهى السمكة المتوحشة المعروفة بسمك القرش، وتصغير قريش جاء للتعظيم؛ لأنها تأكل ولا تؤكل لقلة عددهم، كسمكة القرش رغم صغر حجمها فهى قوية مفترسة لا يقرب منها أحد إلا افترسته ونهشت لحمه.

أو أن قريشا تفيد كما فى القاموس معنى التجمع من هنا وهناك، وسميت بهذا الاسم لتجمعهم حول البيت الحرام.

وأتى بقوله «إيلافهم» عقب «لإيلاف قريش» دون عطف؛ لأن الثانية بدل من الآية الأولى، وتقوم مقامها، فلا معنى لوجود حرف العطف.

﴿ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) ﴾

ورحلة منصوب على المفعول به. وأصل الرحلة ركوب الناقة القوية السريعة، ثم أطلقت عن هذا التقييد، واستعملت فى كل سير وارتحال، واشتهر بذلك.

وأفرد الرحلة مع أنه أراد رحلتى الشتاء والصيف، إما لأمن اللبس. أو المراد بالرحلة اسم الجنس، وهو يطلق على المفرد والمثنى والجمع.

وأضاف الرحلة مرة إلى الشتاء وأخرى للصيف إضافة مجازية عقلية؛ لأن الرحلة تكون فى زمن الشتاء وزمن الصيف.

وكانت رحلة الشتاء إلى اليمن لحرارة جوها، ورحلة الصيف إلى الشام لبرودة طقسها وارتفاع أرضها.

﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) ﴾

المراد بالبيت، الكعبة وهى البيت الحرام، وعرفهم سبحانه بأنه رب هذا البيت؛ لأنهم كانوا يعبدون أوثانهم، فميز نفسه عنها، ولأنهم تشرفوا بهذا البيت على سائر العرب.

وأمر بالعبادة، عبادة الرب وليست عبادة غيره من صنم أو وثن، أو حجر، أمر تخصيص.

وأشار إلى البيت الحرام باسم الإشارة «هذا البيت»، أى أن هذا البيت العظيم الماثل أمامكم لا تخطئه العين، ولا يغفل عنه القلب، فأراد بالإشارة التعظيم والتبجيل للبيت الحرام.

﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾

أى أطعمهم بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: «وارزق أهله من الثمرات» البقرة ١٢٦ وقوله: «رب اجعل هذا البلد آمنا» البقرة ١٢٦ فأطعمهم الله بعد جوع، وآمنهم بعد خوف، فألفوا الرحلة وكان ذلك من نعمة الله عليهم.

«من جوع» نكر «جوع» أى كانوا فى جوع شديد، لتعظيم ذلك الجوع عليهم حتى إنهم لم يكونوا يتحملونه، فنجاهم من الجوع بسبب ما منحهم من طعام، وما أعطاهم من رزق، وهذا سر التنكير.

ولفظة «أطعم» تفيد الماضى، وإطعام قريش وأهل الحرم مستمر على الدوام، ولكن التعبير بالماضى للدلالة على أن الإطعام أمر متحقق لا يتخلف أبدا.

«وآمنهم من خوف» أى من خوف عظيم كان يملأ شعابهم من إغارة القوم عليهم، كما حدث مع أبرهة وجيشه، فلم يلحقهم الخوف بعد إهلاكهم. والتعبير بالفعل الماضى «آمنهم» للدلالة على استمرار الأمن ودوامه مثل أطعمهم.

وهكذا أمرهم الله سبحانه بأن يألفوا عبادة رب هذا البيت كإلفهم رحلة الشتاء والصيف.

* * *

سورة الماعون مدنية

(عدد الآيات ٧ آيات، نزلت بعد التكاثر)

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧ ﴾

هذه السورة نزلت فى أبى جهل، كان وصياً ليتيم، فجاءه عريانا يسأله حقه الذى عليه، فدفعه دفعا شنيعا، فأيس الصبى من أخذ ماله، فقال له أكابر قريش: قل لمحمد يشفع لك، أرادوا بذلك الاستهزاء برسول الله ﷺ ، وهو عليه السلام لم يكن يرد محتاجا، فذهب معه إلى أبى جهل، فقام أبو جهل وبذل المال لليتيم، فعيرته قريش وقالوا: أصبوت - خرجت عن ديننا واتبعت دين محمد - فقال: لا والله ما صبوت، ولكن رأيت عن يمينه وعن يساره حربة خفت إن لم أجبه يطعنها فى.

وإن كان المراد بالآية كل من كذب بالدين، ومن شأنه أذية الضعيف، ودفعه بعنف وخشونة، كان الأمر عاما واستعملت «الذى» مجازا لقصد العموم والشمول.

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ۝١ ﴾

الخطاب لرسول الله، أو لكل من يصلح له الخطاب.

والاستفهام فى «أرأيت» خرج عن حقيقة معناه إلى معنى آخر هو قصد التعجب من حال من يكذب بالدين.

والرؤية هنا ليست بصرية وإنما هى بمعنى المعرفة، وفى الكلام حذف قصد به الاختصار والإيجاز، والمعنى: أرأيت الذى يكذب بالدين أمصيب هو أم مخطئ.

واستعمال الذى جاء على سبيل الكناية عن أبى جهل.

﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ۝٢ ﴾

الفاء هنا جواب شرط مقدر، أى إن تأملته أو طلبته فذلك الذى يدع اليتيم.

أو جوابا لسؤال مقدر: من هو المكذب بالدين؟ ذلك يدع اليتيم، وسواء أكان جواب شرط مقدرا، أو جوابا لسؤال مقدر ففى الكلام إيجاز واختصار.

أو: هو الذى يكذب بالدين، وحُذف المبتدأ «هو» اختصارا للكلام.

و«ذلك» عبر بالأداة التى تفيد البعد، ذما له وبعدا لدرجته فى الإهانة والطرد[1]

«يدع اليتيم» كلمة يدع فيها من العنف والجفوة أكثر من كلمة يدفع اليتيم، ولذا آثر القرآن التعبير بها، دلالة على شدة الفعل وسوء الموقف.

والحظ الاختصار فى الآية، ﴿وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾، أى لايحض نفسه ولا أهله ولا غيرهم عن الإطعام؛ بخلا بالمال وتكذيبا بالجزاء، لاستحكام غريزة البخل فيه.

وثمة حذف آخر فى قوله تعالى «ولايحض على طعام المسكين»، أى لا يحض ولا يحث على بذل الطعام للمسكين، وهو مفهوم من السياق ويستلزمه المعنى المراد.

وفى العدول عن الإطعام إلى الطعام وإضافته للمسكين، يدل على أن للمسكين حقا فى مال الغنى، فإذا منعه من الطعام فقد منعه عن حقه، وفى ذلك نهاية البخل وقساوة الطبع.

«ولا يحض على طعام المسكين» فى ترك الحض كناية عن البخل ومنع المعروف عن المساكين، مما يذم به المرء ويوبخ عليه.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾

الفاء جواب لشرط محذوف كأنه قيل: إذا كان ما ذكر من عدم المبالاة

---

(١) التبيان ص ٧٠.

بالمسكين واليتيم فويل للمصلين... والحذف إيجاز واختصار والويل: العذاب والهلاك للمصلين، ليس مطلق المصلين؛ بل وصفهم بأنهم ساهون عن صلاتهم سهو ترك لها وقلة التفات، كفعل المنافقين وسهو المؤمنين، فهو مجاز بالإطلاق والتقييد.

ولا يصح الوقوف على قوله فويل للمصلين؛ لأن ذلك يؤدى إلى لبس فى المعنى وخروج عن الشرع، فالمصلون لاهلاك لهم ولا عذاب إلا من سها عن الصلاة وتركها.

أما السهو فى الصلاة كالعبث باللحية والثياب والانشغال بسبب وسوسة الشيطان فلا يمكن التحرج منه، وكذلك التثاؤب، والالتفات هنا وهناك.

ومن ثم يتضح الفرق بين قوله: الذين هم عن صلاتهم ساهون، وبين قولهم الذين هم فى صلاتهم ساهون. فالأولى ترك للصلاة، والثانية غفلة أثناء الصلاة، وقد صدر عن رسول الله ﷺ السهو فى الصلاة كما حدث يوم الخندق حين سها عن صلاة العصر قال: شغلونا عن صلاة العصر ملأ الله قلوبهم نارا، وأيضا حين صلى الظهر ركعتين، فنبهه الصديق أبو بكر لذلك فقام وأضاف إليهما ركعتين، وسهو الرسول ليس كسهو سائر الخلق، فهو دائم الاستغراق فى الصلاة، منجذب إليها دوما، وأى الخلق مثل رسول الله؟!

وقد نزلت هذه الآيات فى المنافقين الذين لا يرجون بصلاتهم ثوابا إن صلوا، ولا يخافون عليها عقابا إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها.

وجاءت جملة «الذين هم عن صلاتهم ساهون» بعد الجملة الأولى «فويل للمصلين»، دون عطف؛ لأن الثانية صفة للأولى والصفة لا تفصل عن الموصوف بعطف أو غيره، وكأنما هما جملة واحدة لا جملتان؛ لأن الفصل يدعو إلى اللبس أو التعقيد.

﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ ﴾

يراءون الناس بصلاتهم إن صلوا ليثنوا عليهم، أو يؤخرون الصلاة عن وقتها.

والمراءاة: النفاق الذى لا يرى بالعين، كما جاء فى أول السورة: (أرأيت الذى يكذب بالدين) فهو - إذن - استعمال مجازى، فخرج بالكلام عن مقتضى الظاهر.

(وهم يراءون) بدأ بالاسم وأسند إليه الفعل، وأسند الفعل مرة أخرى لضمير المبتدأ، فتكرر إسناد الفعل، مما يدل على التقوية والتأكيد.

وكرر «الذين هم» فى الآيتين ولم يقتصر على مرة واحدة، ولولا هذا التكرار لعطف الفعل على الاسم «يراءون على ساهون» وهو لا يحسن. واجتناب الرياء صعب؛ لأنه يحمل صاحبه أكثر مما يحتمل، فهو أخفى من دبيب النملة السوداء، فى الليلة المظلمة، على المسح الأسود، مما يتكلفه المرائى ويشغل نفسه به.

وقال «يراءون» ولم يقل ينافقون؛ لأن الفرق بينهما واضح. فالمنافق يبطن الكفر ويظهر الإيمان، والمرائى يظهر زيادة الخشوع والصلاح حتى يعتقد من يراه أنه من أهل التقوى والصلاح. والقرآن يضع كل كلمة فى موضعها الدقيق ومكانها المناسب لها.

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾

جاءت هذه الجملة معطوفة على ما قبلها من عطف الفعل على الفعل وكل منهما مضارع، فالتماثل بينهما واضح مما حسّن العطف وزاده خلابة.

والماعون من المعن، وهو الشىء القليل، وسميت الزكاة ماعونا، لقلة نسبتها الخارجة من المال فهى ربع العشر، وهو قليل من كثير. والماعون بلغة الأحباش: المال. والمراد يمنعون زكاة أموالهم.

والماعون فى الجاهلية: كل ما فيه منفعة ويتداوله الناس فيما بينهم. مثل الأكواب والقدور والملح والماء والغربال والكبريت ونحو ذلك.

وعرف الماعون «بأل» لأنه فى عرف الناس شىء تافه حقير لا يصح منعه عمن طلبه.

وإن كان المراد زكاة المال، فهى ضئيلة بالإضافة إلى المال، ولا تنقص منه شيئا، فما نقص مال من صدقة.

* * *

سورة الكوثر مكية

(عدد الآيات ٣ آيات، نزلت بعد العاديات)

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ۝٣ ﴾

يقول ابن عباس رضى الله عنه: نزلت هذه السورة فى العاص بن وائل، فكان إذا ذكر الرسول يقول: دعوه فإنه رجل أبتر لا عقب له، فإذا هلك انقطع ذكره، ولكن الله سرى عن رسوله، فأخبر عن عدوه بأنه هو البغيض الذى لا عقب له، ولا نسل لديه، أما أنت يا محمد فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة، وذلك؛ أنهم زعموا حين مات أبناؤه عليه السلام القاسم وعبد الله بمكة، وإبراهيم بالمدينة أن محمدا ينقطع ذكره إذا انقطع عمره؛ لفقدان نسله، فنبه الله أن الذى ينقطع ذكره هو الذى يشنؤه، أما هو فكما وصفه الله برفع ذكره، وعلو منزلته، ويبقى نسله على مر الأزمان فهو راع للمؤمنين، والمؤمنون أنصاره إلى يوم الدين.

وسميت السورة بالكوثر؛ لذكر لفظ الكوثر فيها.

والكوثر نهر يجرى بالجنة، أو النبوة أو القرآن، أو المعجزات. والأصح أنه نهر يجرى فى الجنة؛ لقول الرسول ﷺ «أعطيت الكوثر فإذا هو نهر يجرى ولم يشق شقا، وإذا حافتاه قباب اللؤلؤ، فضربت بيدى فى تربته، فإذا مسك أذفر وإذا حصباؤه اللؤلؤ» مسند أحمد.

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝١ ﴾

جعل خبر إن فعلا وهو أعطيناك، وبنى الفعل على المبتدأ، فقدم الفاعل - الذى صار اسما لإن - على الفعل، والتقديم يفيد التوكيد. فتكرر التأكيد مرة بجعل الفعل خبرا وأخرى بإسناده للفاعل. وتكرار الإسناد يزيد الكلام قوة وتأكيداً. وجمع

ضمير المتكلم فقال : إنا أعطيناك، ولم يقل: إنى أعطيتك، لما فى الجمع من عظمة الربوبية.

وأنه صدر الآية بالتوكيد، وهو يجرى مجرى القسم، فكأنه أقسم بذاته أن الإعطاء واقع لا محالة.

وأنه أورد الفعل بلفظ الماضى «أعطيناك» ولم يورد بلفظ الاستقبال، دلالة لتحقق وقوع الفعل، ولا ارتياب فى وقوعه، فالمتوقع من سيب الكريم فى حكم الواقع الحاصل.

وجاء بالموصوف محذوفا - أى نهر كوثر، بمعنى نهر مفرط فى الكثرة، ولم يذكره؟ لأن فى ذكر الموصوف تعيين وتحديد له، فحذفه ليدل على الإبهام والعموم.

وأتى بالكوثر معرفا بأل، ليعطى معنى الكثرة كاملا شاملا وفى الآية تفخيم لما أولاه الله من النعم (١).

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) ﴾

الفاء فى فصل فيها معنى السببية؛ لأنه جعل الإنعام الكثير سببا للقيام بشكر الله المنعم وعبادته.

وجعل سببا لقلة المبالاة بقول العاص بن وائل الذى عير النبى ﷺ حين مات ابنه القاسم فقال: إن محمدا صنبور، أى أقطع لا ولد له، فشق ذلك على رسول الله ﷺ فأنزل السورة. «لربك» فيها تعريض بالكافرين وبدين العاص بن وائل وأشباهه ممن كانت عبادته ونحره لغير الله، فأراد الله سبحانه من الرسول أن يخلص عبادته لوجهه الكريم.

وأن الصلاة والنحر عبادتان، والأعمال البدنية تتمثل فى الصلاة، والأمور المالية تتجلى فى النحر.

وأن الرسول قد اختص بالصلاة، حيث جعلت قرة عينه فى الصلاة، كما

---

(١) التبيان ص ٦٢.

اختص بنحر البدن التى كانت همته فيها قوية، وحبه لها عظيم. ومن البديع فى الآية مراعاة السجع؛ إذ جاء مطبوعا غير متكلف ولا مصنوع.

وقال بالاسم الظاهر «لربك» ولم يقل بالضمير «فصل لنا» على سبيل الالتفات من التكلم إلى الغيبة؛ لما فى ذلك من إظهار لكبرياء شأن الله، وإبانة لعزة سلطانه، وفيها تعريض عن ترك عبادة ربه، وعبد مخلوقا من خلق الله.

وفيه أيضا (فصل لربك وانحر) أى انحر له فحذف اقتصارا واكتفاء بما ذكر قبله، والنحر فى اللّبة كالذبح فى الحلق.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾

هذه الآية كالسبب والعلة للآية قبلها وكأنه قال: ولأى معنى أفعل ما أمرت به؟ فقال: إن شانئك هو الأبتر.

وأنه ذكر العاص بن وائل بصفته لا باسمه، تحقيرا لشأنه ولكى يتناول كل من كان على هذه الحال وتلك الصفة من الشانئين الكائدين لدين الحق.

وأنه صدر الجملة بحرف التوكيد، ولم ينطق إلا بالشنآن وما فيه من بغى وحسد، وبالبغضاء وما فيها من غيظ ومنع، ولذا وصفه الله يما ينبئ عن المقت الشديد.

وعرف الأبتر بأل، ليدل على كمال البتر والقطع لهذا العدو الشانئ المغيظ المحنق، كأنه هو الموصوف بالأبتر، أى بهذا الوصف الذى وصف به رسول الله ﷺ.

وفصل بين اسم إن وخبرها بضمير الفصل الذى يدل على معنى القصر فصفة الأبتر لازمة لذلك الشانئ وحده دون غيره.

هذه السورة مشحونة بجلائل النكث البلاغية الخالية من التصنع والتكلف، ومعانيها على قصرها غزيرة، وهى معدودة من الإيجاز المعجز.

* * *

سورة الكافرون مكية

(عدد الآيات ٦ آيات، نزلت بعد الماعون)

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾

سبب نزول هذه السورة أن الكافرين سألوا رسول الله ﷺ أن يعبد آلهتهم سنة، ويعبدوا إلهه سنة، فأمره سبحانه أن يقول لهم آيات السورة. وهناك روايات أخرى بأسلوب آخر ولكنها جميعا لا تخرج عن هذا المعنى.

افتتحت السورة بفعل الأمر قل، والرسول إذا أمر بشىء لزمته الطاعة.

وعقب بالنداء لتنبيههم إلى ما يقول.

وناداهم بيا التى تفيد البعد، وهم قريبون منه، فكان حقه أن يستعمل الأداة التى تفيد القرب، ولكنه استعمل الأداة التى تفيد البعد، نظرا لبعدهم عن القلب، وبعد مكانتهم عن الرسول والرسالة.

ووصفهم بأنهم كافرون، وهو الوصف الذى يسترذلونه فى بلدتهم ومحل عزهم وشوكتهم.

واستعمل جمع المذكر وليس جمع التكسير الذى يفيد الكثرة، فقال (الكافرون) دلالة على حقارتهم وذلتهم، وهم كفرة مخصوصة كالوليد بن المغيرة، وأبى جهل، والعاص بن وائل، وأمية بن خلف، وغيرهم ممن لهم مكانة فى قريش.

«فالكافرون» يفيد جنس الكافرين جميعا، ولكن المراد بها أفراد مخصوصون، من سبق عليه القول منهم بأنه يموت كافرا. فعبر بالعموم وأراد الخصوص.

﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) ﴾

لا حـرف نفى لا يدخل غـالبـا إلا على فعل مـضـارع يفيـد الاستـقبـال، أى: لا أفعل فى المستقبل مـا تطلبونه منى من عبـادة آلهـتكم، وتعبـدون يفـيد استـحضـار صورة ما يعبدون ويتمثلونه أمامهم ويداومون على عبادته، فنفى عن نفسه عبادة ما يعبدون.

﴿ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) ﴾

دخلت لا على جملة اسمية، وهى تفيد الدوام والثبوت فى جميع الأوقات، فإذا دخل على الاسمية حرف النفى، نفى عنها ما دلت عليه من الدوام والثبوت فيكون المعنى، أنتم لا تعبدون فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل، ما أعبد؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام دون أن يتخلوا عن عبادتهم لها فى أى وقت من الأوقات.

وعبر باسم الفاعل «عابدون» للدلالة على أنهم كانوا يمارسون عبادة الأصنام وقت نزول السورة.

وعبر بالمضارع «أعبد» لاستحضار صورة عبادته للواحد القهار الذى لا يعبد سواه.

وحذف المفعول به من قوله (ما أعبد) أى ما أعبده، لتعينه بالذكر، ولأنه أجل من أن يخفى، وأعظم من أى يغيب.

﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) ﴾

ولست فى الحال بعابد معبودكم، ولا أنتم فى الحال بعابدى معبودى. يقول الأخفش والفراء: لا أعبد فى الحال أو الاستقبال ما تعبدون، ولا أنتم عابدون الآن أو فى المستقبل ما أعبد.

فالسورة ليس فيها تكرار، لاختلاف معنى كل آية عن أختها، «وليس العبرة بتكرار اللفظ، وإنما العبرة بالأغراض والمقاصد»[١].

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾

---

(١) نهاية الإيجاز - الرازى ص ٣٩٠.

«لكم دينكم» تقرير لقوله تعالى «لا أعبد ما تعبدون»، وقوله «ولا أنا عابد ما عبدتم». يريد أن يؤكد نفى عبادته لآلهتهم.

وقوله «ولى دين» تقرير وتأكيد لمضمون قوله تعالى «ولا أنتم عابدون ماأعبد» يريد أن يؤكد نفى عبادتهم للواحد القهار.

وقدم الجار والمجرور فى الجملتين «لكم دينكم، ولى دين» أى أن دينكم مقصور عليكم لا يتعدى ذلك إلى حصوله منى كما تطمعون وتتمنون أن أتبعكم فيه، فهذا من المحال.

«ولى دين» ليفيد أن دينه التوحيد مقصور عليه لا يتجاوزه إلى حصوله منكم فهيهات لما جبلوا عليه من قسوة القلب وغلظ الطبع، فهم لن يؤمنوا به، لأن الله كتب عليهم الكفر فى الأزل. (١)

فأنا لا أعبد آلهتكم، وأنتم لن تعبدوا إلّهى. وأنتم كافرون لأنكم تعبدون الأصنام والطواغيت. ولن تعبدوا الله الواحد القهار الذى قهر بوحدته كل كثرة وتجمع.

ولى دينى وهو الإيمان بالله والكفر بالطاغوت.

وواضح أن الآيات على تشابهها ليس فيها تكرار. لأنه لكل آية معنى لا يتفق مع غيرها من الآيات الأخر. وإنما جاءت الآيات على هذه الكيفية للتأكيد على قطع أطماع الكفار أن يجيبهم الرسول إلى ما سألوه من عبادة آلهتهم.

* * *

---

(١) فقدم المسند وهو الجار والمجرور لتخصيص المسند إليه، أى أن دينكم خاص بكم لا يتجاوزكم إلىّ، ودينى خاص بى، لا يتجاوزنى إليكم» التبيان ص٩٥.

سورة النصر مدنية

(عدد الآيات ٣ آيات، نزلت بعد التوبة)

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣)﴾

هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ أوسط أيام التشريق بمنى فى حجة الوداع.

وعندما نزلت قال الرسول ﷺ: نعيت إلىَّ نفس وقرّب إلىَّ أجلى.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾

إذا جاء نصر الله وعونه على من عاداك من قريش وغيرهم، فإذا لما يستقبل من الزمان، وإذا ذكر المستقبل وتحقق كان ذلك معجزة.

ودخلت إذا على الفعل الماضى جاء، لتفيد تحقق وقوع النصر. وعبر بالمجىء مجازا؛ لأن النصر لا يحدث منه فعل المجىء وكذا الفتح، إيذانا بأن كلا منهما متوجه إليه ﷺ.

وأضاف النصر لله سبحانه باعتبار أنه محقق للنصر، وإلا فإن النصر كان بإصرار المسلمين، وهو أمر حادث أحدثه الله فيهم.

والفرق بين النصر والفتح، أن الفتح فيه كشف لما انغلق من الأمور، والنصر سبب للفتح، ولذا بدأ بذكر النصر، أى السبب وعطف عليه الفتح وهو نتيجة النصر، كما يتقدم السبب على المسبب.

والمراد بالنصر كمال الدين، وبالفتح إقبال الدنيا وتمام النعمة. وكمال الدين يكون بقهر الأعداء، وتمام النعمة يكون باقتحام دورهم وخضوعهم.

والمراد بالفتح فتح مكة فيكون خاصا، وإذا كان المراد مطلق الفتح، يكون عاما. والآية لم تذكر العموم ولا الخصوص، حتى تذهب فيه النفس كل مذهب.

﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) ﴾

أى أبصرت الناس من عرب وعجم وغيرهم يدخلون فى دين الله الذى بعثك به جماعات جماعات فوجا بعد فوج.

وإن أراد بالناس أهل اليمن، فقد دخل منهم سبعمائة إنسان فى الإسلام دفعة واحدة، إن أراد هذا المعنى فكلمة الناس مجاز مرسل علاقته العموم؛ لأن الناس أكثر من أهل اليمن.

وإن أراد بالناس معناها المتعارف عليه وهو الخلق جميعا، فكلمة الناس تطلق على من دخل فى دين الله وحدهم، فتكون مجازا لعلاقة الخصوص.

«يدخلون فى دين الله» فدخول الحرف «فى» على دين الله، ودين الله لا يصلح للظرفية، لأنه ليس وعاء للدخول حقيقة، كما تقول المال فى الكيس، وإنما هو شىء معنوى لا يصلح أن يكون ظرفا، فاستعمال فى هنا على سبيل الاستعارة التبعية.

«أفواجا» تدل على الكثرة الهائلة التى كانت تدخل فى دين الله، بعد أن كانوا يدخلون فردا فردا أو اثنين اثنين، فصارت القبيلة تدخل بأسرها فى الإسلام كأهل مكة، والطائف، واليمن، وهوازن.

ويحتمل فى قوله «ورأيت الناس» أن يكون الخطاب عاما لكل مؤمن، وليس الرسول فحسب فتكون مجازا يفيد العموم.

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (٣) ﴾

«فسبح بحمد ربك» جواب إذا، والتسبيح مجاز لأنه يفيد التعجب، بعلاقة السببية، فإن من يرى أمرا عجيبا يقول سبحان الله، تنزيها لله عن العجز عن خلق شىء عجيب يستبعد وقوعه؛ لتيقنه أن الله على كل شىء قدير.

ودائما يقترن الحمد بالتسبيح كما فى قوله تعالى: (فسبح بحمد ربك) الحجر ٩٨ وقوله (وإن من شىء إلا يسبح بحمده) الإسراء ٤٤، فما أمرنا بتسبيحه

إلا لحمده، فقل سبحان الله حال كونك ملتبسا بحمده، وتعجب لتيسير الله مالم يخطر ببال أحد، واحمده على جميع صنعه، وعظيم منته على هذه النعمة.

ويجوز أن يكون المراد بقوله «فسبح بحمد ربك» مجازا عن الصلاة للجزئية، لأن التسبيح بعض الصلاة، وقد روى أنه عليه السلام لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الشكر.

وضم للتسبيح الاستغفار، أى اطلب منه المغفرة، هضما لنفسك واستقصارا لعملك، واستدراكا لما فرط منك من ترك الأولى.

وقيل: إن المراد أمره بالاستغفار لأمته لا لذنبه، فيكون مجازا علاقته الخصوص.

«إنه كان توابا» تواب من صيغ المبالغة، أى أن الله مبالغ فى قبول توبة التائبين.

وفى الترتيب المذكور فى الآية فسبح بحمد ربك واستغفره، حيث قدم التسبيح ثم الحمد ثم الاستغفار، تعليم وإرشاد بأدب الدعاء، وهو ألا يسأل فجأة من غير تقديم الثناء على الله سبحانه.

وفى الاستغفار تنبيه على تمام أمر الدعوة، وقرب الأجل، ودنو الرحيل.

وعندما نزلت هذه السورة مرض رسول الله ﷺ، فخرج إلى الناس خطيبا ودخل المنزل، وتوفى بعدها بفترة وجيزة.

* * *

سورة المسد مكية

(عدد الآيات ٥ آيات، نزلت بعد الفاتحة)

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾

تبت: هلكت، أو خسرت، أو خابت، أو ضلت، وصفرت من كل خير.

المراد باليدين نفسه، فقد يعبر باليد عن النفس، كما فى قوله تعالى (بما قدمت يداك) الحج ١٠، أى نفسك، فتكون مجازا، والعرب كثيرا ما تعبر ببعض الشىء عن كله، كقولهم: أصابته يد الدهر، أو أصابته يد المنايا، وخص اليدين بالتباب؛ لأن أكثر العمل يكون بهما.

وأبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، ذكره الله بكنيته، لاشتهاره بها، والعزى: اسم صنم، وهذه الكنية تدل على أنه ملابس للنار، لأن اللهب هى لهب النار. أو لأنه كان فى الأصل جميلا، مشرق البشرة، متلهب الوجه، كما تتلهب النار. والكنية تكون للمدح، إلا أنها فى هذا المقام جاءت للذم.

وتبّ: هلك. والأولى دعاء والثانية خبر، كما تقول: أهلكه الله وقد هلك داعياً عليه بالهلاك، واستجاب الله لدعائه، ووقع ما كان يدعو به عليه. «وذكره بكنيته دون اسمه إهانة له وتحقيرا لشأنه» (١)

وسبب نزول السورة أنه عندما نزل قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين) الشعراء ٢١٤ رقى رسول الله ﷺ الصفا وجمع أقاربه فأنذرهم، قائلا: يا بنى عبد المطلب، يا بنى فهد، أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى أكنتم مصدقى؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبا، قال: إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد.

---

(١) التبيان ص ٦٤.

فقال أبو لهب: تبا لك ألهذا جمعتنا؟

أراد أن يرميه بحجر - فمنعه الله من ذلك حيث لم يستطع أن يرميه. فذكر اليدين يكون على سبيل الحقيقة، وليس مجازا أو كناية.

وعبر بالفعلين تبت، وتبّ، بالماضى، لتحقق وقوعهما، وهنا لطيفة يحسن ذكرها، وهى بداية السورة بقوله تعالى تبت يدا أبى لهب، ولم يذكر «قل تبت» كما فى المعوذتين مثلا، لئلا يكون مخاطبا لعمه بالشتم والتغليظ وإن شتمه عمه، لأن للعم حرمة كحرمة الأب، والنبى مبعوث الرحمة للعالمين، فهو القدوة فى التربية والسلوك، فأجاب الله عنه.

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) ﴾

أى: ما دفع عنه ما حل به من التباب، وما نزل به من عذاب الله شىء، ما جمع من المال، ولا ما كسب من الأرباح أو الجاه. فما أغنى عنه ما ورثه من مال أبيه، وما كسبه بكده.

ويجوز أن يكون المعنى أى شىء أغناه؟ لا المال ولا الكسب، فالاستفهام هنا أراد به الإنكار.

لقد هلك أبو لهب بعد وقعة بدر لسبع ليال، أصيب بالطاعون فاجتنبه أهله مخافة العدوى، فبقى ثلاثة أيام لا يقربه أحد حتى أنتن، حفروا له حفرة ثم دفعوه بعود فى حفرته، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى وارووه.

وكانت عائشة رضى الله عنها إذا مرت بموضعه، غطت وجهها.

﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) ﴾

سيصلى هو بنفسه، لتعينه وقد سبق ذكره بكنيته، فهو سيدخل النار لا محالة.

ونكر «نارا» لتعظيمها وشدة غليانها.

ووصف النار بأنها ذات لهب، أى نارا عظيمة ذات اشتعال وتوقد، وهى نار جهنم.

﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾

أى وتصلى امرأته نارا ذات لهب، كزوجها الذى آذى رسول الله وهى أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان، كانت تحمل الأشواك والحسك وتطرحه ليلا فى طريق رسول الله.

كما كانت تمشى بالنميمة بين الناس تتقول على الرسول افتراء وبهتانا، فهى تحمل الحطب كناية عن كونها تحمل الخطايا والذنوب، كما تقول: فلان يحتطب على ظهره، وكقوله تعالى: «وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم»، والذنوب لا تحمل على الظهر فى الحقيقة، وإنما هو تعبير مجازى درج عليه العرب، ولن تجد ذما أفدح من أنها حمالة الحطب، سواء كان حقيقة أو مجازا.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾

الجيد: العنق، والمسد: حبل من الليف أو الصوف أو الجلد. كانت تعير النبى ﷺ بالفقر وهى تحتطب فى حبل تجعله فى عنقها فخنقها الله به فأهلكها. هذا فى الدنيا.

وفى الآخرة: هو سلسلة من نار تدخل فى فيها وتخرج من أسفلها. وقدم الخبر «فى جيدها» وأخر المبتدأ «حبل» لما يفيده التقديم من اهتمام بشأن المقدم، تحقيرا لشأنها، فقد كانت تحمل حزمة الشوك وتربطها فى جيدها كما يفعل الحطابون، انتقاصا لقدرها، وتصويرا لها بصورة الحطابات، فتغضب ويشق عليها الأمر وعلى زوجها، وهما فى بيت العز والشرف وفى منصب الثروة والجدة.

ونكر «حبل» لازدراء صورة الحبل وتفاهته، ووصفه وبينه بأنه «من مسد» أى شوك وحسك، ولن يؤثر فى دعوة الرسول ولن يجعله يتخلى عن رسالته.

* * *

سورة الإخلاص مكية

(عدد الآيات ٤ آيات، نزلت بعد الناس)

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾

عن أبى بن كعب رضى الله عنه أن المشركين قالوا للنبى ﷺ: يامحمد انسب لنا ربك، فأنزل الله: قل هو الله أحد، السورة أى ليس شىء يولد إلا سيموت، وليس شىء يولد إلا سيورث، وأن الله لا يموت ولا يورث، ولم يكن له كفوا أحد، أى لم يكن له شبيه ولا عبد وليس كمثله شىء.

ويقول رسول الله ﷺ: من قرأ قل هو الله أحد فكأنما قرأ ثلث القرآن»

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾

صدر الجملة بقل ليفيد التنبيه من أول الأمر على فخامة مضمون السورة. وأبهم ثم فسر لمزيد من التقرير والتأكيد.

فضمير الشأن يفيد تعظيم ما سيأتى بعده، وهو كناية عن ذكر الله. (١) أى سألتم بيان نسبته: هو الله أحد، فضمير هو راجع إليه سبحانه لا إلى غيره. ولفظ الله علم يدل على الإله الحق دلالة جامعة لمعانى الأسماء الحسنى كلها.

وأحد يفيد العموم. أى لا يشاركه شىء فى ذاته، فهو واحد بذاته بلا اعتبار شىء آخر، فأثبت له الأحدية التى هى غناء عن كل ما عداه. فلا يوصف بالأحدية غير الله، ولا يقال رجل أحد ولا درهم أحد، كما يقال رجل واحد ودرهم واحد. فالواحد يدخل فى الأحد، والأحد لا يدخل فى الواحد. فإذا قلت: لا يقاومه واحد، جاز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان، بخلاف قولك: لا يقاومه أحد.

---

(١) وضع المضمر موضع الظاهر فى الآية، أى الشأن الله أحد، ليتمكن فى ذهن السامع ما يعقبه، فإن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقى منتظرا لعقبى الكلام كيف يكون، فيتمكن فى ذهنه فضل تمكن» الإيضاح - القزوينى - ط عبد القادر ص ١٠١، ١٠٢.

﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ ﴾

والصمد: هو الذى يصمد إليه فى الحاجات، أى يصمد لكونه قادرا على قضائها، وهو السند الذى تنتهى إليه السيادة، فلا سيد فوقه، وهو الدائم الباقى الذى لم يزل ولا يزول. وهو المستغنى عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. وهو المقصود فى الرغائب والمستعان به فى المصائب. وهو الذى يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد. وهو الكامل الذى لا نقص فيه ولا عيب. وذلك أظهر فى المدح وأدخل فى الشرف.

وكرر لفظ الجلالة، «الله» للإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية.

وذكر جملة «الله الصمد» بعد قوله: «الله أحد» دون عطف؛ لأن الجملة الأولى كالسبب للجملة الثانية، والجملة الثانية كالنتيجة للجملة الأولى. والسبب والنتيجة متلاصقان لا ينفك أحدهما عن الآخر. يقول الفخر الرازى: فإنه لو ترك الإظهار إلى الإضمار فقيل: قل هو الله أحد، هو الصمد، لم يكن فيه من الفخامة ما فيه الآن» (١) أو كما يقول الطيبى: «إنه عبر بالظاهر لإدخال الروعة فى ذهن السامع» (٢).

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾

لم يصدر عنه ولد، ولم يصدر هو عن والد، شأن الآخرين من الخلق؛ لأنه لا يجانسه شىء ولا يماثله أحد، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقا ولاحقا.

وذلك أن مشركى العرب قالوا: الملائكة بنات الله.

وقالت اليهود: عُزير ابن الله.

وقالت النصارى: المسيح ابن الله.

فكذبهم الله فقال: لم يلد ولم يولد.

---

(١) نهاية الإيجاز ص ٣٤٤، والدلائل ص ١٠٧.

(٢) التبيان ص ٦٠.

قدم ذكر الولد «لم يلد» على ذكر الوالد «لم يولد» للاهتمام بشأن الولد، لأن المشركين ادعوا له الولد، ونسبوا إليه الملائكة وعزير والمسيح، ولم يدع أحد أن لله سبحانه والدا.

فبدأ بالأهم، «لم يلد»، وعقب بقوله «ولم يولد» كالدليل على امتناع الولد، لأن الله جل جلاله ليس ولدا لأحد، فيتفق مع كونه ليس والدا لأحد.

وعبر بالماضى «لم يلد ولم يولد» ولم يعبر بالمستقبل؛ لأنه ورد جوابا عن قولهم: ولد الله، حكاية عن قوله تعالى «آلا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله» الصافات ٥١. فقالوا ذلك بلفظ يفيد الماضى، فجاء الجواب على شاكلته فى الماضى؛ إبطالا لزعمهم وافترائهم بأن الملائكة بنات الله والمسيح ابن الله، يقول أبو الليث: لم يلد: يعنى لم يكن له ولد يرثه، ولم يولد: لم يكن له والد يرث ملكه.

﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) ﴾

قدم الجار والمجرور «له» وهو الخبر على المبتدأ وهو «أحد» لرعاية الاهتمام، لأنه قصد نفى أن يكافئه عن ذاته، أى يضاهيه ويماثله أحد.

وأخر المبتدأ «أحد» رعاية لفاصلة الآيات السابقة، فالسورة كلها تجرى على فاصلة واحدة وهى الدال، فلو جاءت هذه الآية على الترتيب المألوف لاختلت النغمة الموسيقية الناشئة عن تماثل الفاصلة.

يقول سيبويه: التقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار، عربى جيد كثير. فليس له كفو، وليس كمثله شىء.

ونكر كفوا، وأحد، ليفيد فى كل منهما العموم والشمول. أى ليس أحد مهما كان عظيما أو غنياً أو حكيما، أو عالما أو جبارا يضارعه فى صفاته، فالكل دونه، وهو فى المكانة العليا، والدرجة الرفيعة التى لن يصل إليها كائن سماوى أو أرضى.

وهو الرب الذى يقصد لدفع كل بلية، وإيصال كل خير، وهو الذى يستشفع به لدفع العذاب، ومنح الثواب.

وهو وحده ليس أحد سواه المستحق للألوهية والربوبية.

سورة الفلق مكية

(عدد الآيات ٥ آيات، نزلت بعد الفيل)

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴾

روى عن ابن عباس رضى الله عنه أنه كان غلام من اليهود يخدم النبى ﷺ وكان عنده أسنان من مشطه، فأعطاها اليهود، فسحروه عليه السلام فيها، وتولى سحره لبيد بن أعصم اليهودى وبناته وهن النفاثات فى العقد، ودفنها فى بئر تسمى ذروان، فمرض رسول الله ﷺ مرضا شديدا لبث فيه ما يقرب من ستة أشهر، فنزل جبريل بالمعوذتين، وأخبره بموضع السحر، وبمن سحره، وبم سحره.

فأرسل رسول الله ﷺ عليا والزبير وعمارا رضى الله عنهم، فنزحوا ماء البئر وكأنه نقاعة الحناء، ورفعوا الصخرة التى فى أسفل البئر فأخرجوا من تحتها الأسنان ومعها وتر قد عقد فيه إحدى عشرة عقدة مغروزة بالإبر، فجاءوا بها إلى النبى ﷺ، فجعل يقرأ المعوذتين عليها، وكلما قرأ آية انحلت عقدة، فوجد خفة حين انحلت العقدة الأخيرة بتمام السورتين، وكأنما نشط من عقال، وجعل جبريل يقول: باسم الله أرقيك، والله يشفيك من كل شىء يؤذيك، من عين وحاسد.

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ ﴾

الفلق: الصبح؟ لأنه يفلق عنه الليل، ويتحقق هذا بأن يكون الشىء مستورا محجوبا عن الأنظار، وثمة شىء حجبه وأخفاه، ثم يشق هذا الحجاب الساتر عن وجه المستور، فيظهر بعد أن كان مختفيا.

والصبح صار مفلوقا عنه بإزالة ما عليه من ظلمة الليل، يقال فى الأمثال: هو أبين من فلق الصبح.

وأضاف لفظة «رب» إلى الفلق؛ لأنه ينبئ عن النور عقيب الظلمة، والسعة بعد الضيق، والخفة بعد الكثافة.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾

أى من شر ما خلقه الله من الثقلين وغيرهما أيا كان، من السباع والهوام، فيشمل جميع الشرور بدنية أو نفسية، بدنية كالضرب والقتل، ونفسية كالإهانة والسحر.

وأضاف الشر إلى خلقه من المطبوعين على إلحاق الأذى والضرر بغيرهم من الطيبين والصالحين من الناس.

وحذف المفعول به «ما خلق» أى من شر ما خلقه، حتى يكون شاملا لشرور الخلق أجمعين، فالحذف جاء ليدل على الشمول والعموم.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾

هذه الآية داخلة فى الآية التى قبلها، والآية مشتملة عليها، فهى تفيد الخصوص بعد العموم؛ وذلك لشدة الافتقار إلى التعوذ من شرار الخلق لكثرة وقوع الشر منهم سواء كان شيطانا أم إنسانا أم حيوانا، فإعادة ذكره تفصيلا بعد أن كان مجملا يدل على شدة العناية به وأدعى للاستعاذة منه.

والغاسق: الليل المظلم الشديد الحنكة، أو هو كل شر يعترى الإنسان على العموم، وأضاف الشر إليه «من شر غاسق»؛ لكثرة وقوع الشر فيه، فالليل ليس شريرا يقع منه الشر كما يقع من الأشرار، ولذلك فهو مجاز عقلى علاقته الظرفية، باعتبار وقوع الشر فيه بأيدى المفسدين وأفعال الأشرار.

ونكر لفظة «غاسق» ومعناها الليل كما سبق، والشر لا يقع فى جميع أوقات الليل، أو شامل لجميع زمانه، وإنما يقع فى بعض أوقات الليل وليس فى جميع أوقات الليل، فذكره كلية وأراد به بعضه، فهو مجاز علاقته العموم، والتنكير للتقليل وعدم العموم.

و«الغاسق إذا وقب» أى الليل إذا أوغل فى الظلمة.

فالوقب: النقرة فى الشىء، كالنقرة فى الصخرة إذا اجتمع فيها الماء ومنه وقب الظلام: أى دخل.

وقيد غاسق بإذا؛ لأن حدوث الشر فى الليل يكثر إذا اشتد ظلامه، والتحرز فيه من وقوع الشر أصعب، ولذا يقال: الليل أخفى للويل، أو أغدر لليل؛ لأنه إذا أظلم كثر فيه الغدر، وغلب عليه العصيان. وطلب النجدة والغوث.

﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) ﴾

من النفث، وهو شبه النفخ يكون فى الرقية ولا ريق معه، فإن كان معه ريق فهو التفل، وعرف النفاثات بأل، لبيان ما يلزم طبعهن من شرور.

والعقد: جمع عقدة، وهى ما يعقده الساحر على وتر أو حبل أو شعر أو منديل، وهو ينفث ويرقى.

أى من شر النفاثات اللاتى يعقدن عقدا فى خيوط وينفثن، واكتفى بذكر النساء «النفاثات» لأنهن أشد كيدا وإيذاء من الرجال.

أو أن المراد بالنفث فى العقد إبطال عزائم الرجال بالحيل الغريبة الهابطة فى إتيان أزواجهن، إمعانا فى الحاق الضرر بهم وبأزواجهم.

فالنساء من شأنهن أن يغلبن على الرجال بالحيل والمكر، فيحولوهم عن حلائلهن، فاستعار لذلك تليين العقدة بنفث الريق ليسهل حلها.

وعبر بالجمع فى النفاثات، وفى العقد، دلالة على أن الأمر فى كل زمان لا يخلوا من جماعة من النساء ينفثن فى عدة من العقد يسحرن بها للرجال، حتى يلحق الضرر بهم وبأزواجهم وأخواتهم.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾

إذا أظهر الحاسد ما فى نفسه من الحسد وعمل بما يقتضيه من ضرر وإلحاقه بالمحسود قولا أو فعلا.

وقيد الحاسد بـ «إذا حسد» فحاق ضرره بالمحسود، فبعض الحسد لا أثر له، رغم وجود الرغبة الجارفة فى حصوله، فجاء القيد لذلك.

وقد يقع الحسد فى الخيرات، ليس بمعنى زوالها بمن يتمتع بها؛ بل بمعنى أن يتمنى مثلها لنفسه، ويسمى ذلك غبطة لا حسدا. فالحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

ذكر الله شر المخلوقات فى أول السورة ثم ختمها بالحسد؛ ليبين لنا أن الحسد من أخبث الطبائع وأسوأ الأفعال، ويدل على سوء الطوية وفساد الأريحية.

وفى الآيتين الأوليين نلحظ السجع لاتفاق الفاصلتين فى حرف القاف.

وبقية الآيات جاءت مرسلة غير مقيدة بسجع ولا متماثلة فى وزن، وهو نوع من التفنن فى الأساليب عند نقاد العربية ومبدعيها.

ومهما يكن من شىء فإن الله أذن بنفاذ السحر إلى بدنه وغلبته عليه؛ ليؤكد صدقه وصحة معجزاته ﷺ، وكذب من ينسب إليه السحر والكهانة.

ولو كانت معجزات الرسول من باب السحر، لعرف أنه مسحور وتوصل إلى دفعه عن نفسه، ولكنه برح مريضا بالسحر فترة طويلة دون أن يعلم شيئا عن سحره ومن سحره.

ولا شك أن هذا من أقوى البراهين على صحة نبوته وصدق رسالته.

* * *

سورة الناس مكية

(عدد الآيات ٦ آيات، نزلت بعد الفلق)

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥﴾

هذه السورة هى إحدى المعوذتين، وسميت بسورة الناس؛ لأنها تكررت فيها خمس مرات. والقصد منها الحذر والاحتراز عن وسوسة الشيطان ومن تعدى الإنس والجن.

وكان الرسول ﷺ يتعوذ بسورتى الفلق والناس من عيون الإنس والجن. والرسول ﷺ يقول: من أحب السور إلى الله: قل أعوذ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس، وكان إذا اشتكى يقرأ على نفسه المعوذتين وينفث، وإذا اشتد وجعه كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تقرؤهما عليه وتمسح بيدها على جسده رجاء البركة والبرء.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾

«قل» فعل أمر استعمل فى معناه الحقيقى وليس المجازى؛ لأنه أمر من الله سبحانه لنبيه، أمر من الأعلى لمن دونه فى الرتبة.

و«أعوذ» فعل مضارع، وعبر به ليكون الاستيعاذ من الجن والشياطين متكررا متجددا فى كل وقت ومكان شأن الفعل المضارع.

وقال: «رب الناس» مع أنه رب المخلوقات جميعا من جن وملائكة وإنس؛ لأن الاستعاذة وقعت من شر ما يوسوس فى صدورهم، وهم الناس دون غيرهم من ملائكة أو شياطين، فليس ثمة من ذكر الناس شىء سوى الاهتمام بشأنهم والعناية بأمرهم.

فالشيطان يوسوس فى صدر الإنس، والإنسان يوسوس فى صدر أخيه الإنسان، أما الجنى فلا يوسوس فى صدره إنس ولا جان.

وقد يراد بالناس هنا مرحلة طفولتهم؛ لأن كلمة الربوبية (رب الناس) تدل عليه، ومرحلة الطفولة تفتقر دوما إلى التعليم والتهذيب والتربية، والله هو المربى وهو المعلم فى حقيقة الأمر. وإضافة كلمة الرب إلى الناس تشريفا لهم.

﴿ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ ﴾

أى أن ربوبيته ليست كربوبية سائر الملاَّك لما يمتلكون، كرب البيت ورب الضيعة ورب المتاع بمعنى مالكه؛ بل الله يمتلك الناس امتلاكا كاملا بسلطانه القاهر، وقدرته الشاملة، وقد وضح ذلك من إضافة لفظ الملك للناس (رب الناس).

وقد يراد بالناس هنا الشبان، لما فى الشباب من شدة وعناد وصلابة، و«ملك الناس» يدل عليه لما فى ذلك من امتلاك زمام أمرهم.

﴿ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ ﴾

فالرب قد يكون ملكاً، كما فى الآية السابقة، وقد لا يكون، والملك لا يكون إلّهاً، وقد يكون، فبيّن أن كلمة إلّه خاصة به دون سواه، لا يشاركه أحد فيها، فأفادت التخصيص.

وقد يراد بالناس هنا الشيوخ؛ لأن الإنسان إذا وصل هذه المرحلة من العمر، حنكته التجارب، وابتعد عن الغواية والمعصية، وتمسك بالإيمان والتقوى، ولفظ «إلّه» الذى ينبئ عن العبادة فى قوله «إلّه الناس» يدل عليه.

وهى صفة أخرى تميز الخالق عن كل من عداه وما عداه من مخلوقات. وكرر لفظ الناس ثلاث مرات متعاقبات؛ لأن التكرار فيه مزيد لشرف الناس، واختصاص بمزية التوكيد والبيان، كما أن التكرار هنا ليس سجعا؛ لأن معنى الناس فى الجميع واحد لا يختلف، والسجع لابد فيه من اتحاد اللفظ واختلاف المعنى.

يقول الطيبى فى كتابه التبيان بعد أن ذكر «قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إلّه الناس» إن هذه الإضافة تفيد إرشاد النبى لقومه أن يلجئوا إلى ربهم، وإلى

أمورهم من شر عدوهم على الترقى لتقوية داعية المغيث، كما يستغيث العبد إذا اعتراه خطب بسيده»[1].

﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾

أضاف كلمة «شر» إلى الوسواس، وهو الشيطان؛ لبيان أن كل ما يصدر عن الشيطان الموسوس لا يخرج عن الشر، والشر متوغل فيه إلى أقصى الدرجات، يجرى فيه مجرى الدم من العروق.

ووصف الوسواس بالخناس؛ لأنها صفة لازمة له لا تتخلف عنه أبدا، فهو يخنس وتخف حدته إذا ذكر اسم الله، وإذا غفل المرء عن العبادة وعن ذكر الله ظهر الشيطان ووسوس للغافل وأغراه بشرور الأعمال وارتكاب المعاصى.

﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾﴾

عبر بالاسم الموصول «الذى» وجعل المضارع «يوسوس» صلة له، والصلة لابد أن تكون معلومة للمخاطب، ووسوسة الشيطان فى قلب المؤمن ليست بالمجهولة لديه، فهو دائم الوسوسة حينا بعد حين، لا يفتر عنها مادام المرء رخو الإيمان، ولا ينقطع عن وسوسته إلا إذا واجهه المرء بإيمان قوى وعزم أكيد.

فعبر بالفعل المضارع ليفيد تجدد الوسوسة وحدوثها واستمرارها.

(فى صدور الناس) ولم يقل فى قلوب الناس؛ لأن الصدر بمنزلة الوعاء للقلب، والقلب مضغة فيه، فوسوسة الشيطان تفيض بالقلب حتى يمتلئ، فتتدفق على كل ما يحيط به، حتى تطفى فيترع به الصدر.

والمراد من لفظة «الناس» فى قوله (الذى يوسوس فى صدور الناس» هم أهل الصلاح والبر؛ لأن الوسوسة سواء أكانت من شيطان الإنس أو من شيطان الجن، فصاحبها مولع بها ويعمل على غوية كل من يعرض له.

---

(١) التبيان - الطيبى ص ٧٧، ٧٨ ط عالم الكتب.

عرف كلا من الجنة والناس «بأل» لأن كلا من فريق الجن وفريق الإنس معلوم عند جميع الخلق، لا يجهل معناهما أحد، بالفعل أو بالسماع.

أراد بذلك أن يستعيذ الإنسان من كل صنوف الجن وهمزات الشياطين من الإنس.

وعطف الناس على الجنة؛ لأن كلا من الفريقين مغاير للآخر. فلزم العطف حتى لا يظن أنهما من جنس واحد، رغم أن القصد من وسوستهما واحد. فشيطان الإنس يبدو فى صورة الناصح الأمين الذى يريد المصلحة وهو يروج للمعصية، وتؤدى وسوسته إلى الخسران المبين. والشيطان من الجن يغرى بالوسوسة فيوقع الإنس فى الإثم والهلاك.

يقال: إن المراد بالناس فى هذه الآية هم المفسدون الأشرار. وعطفه على الجنة (من الجنة والناس) يفيد ذلك لما يلزم من العطف اتفاقهما فى الغرض.

والشيطان لفظ عبرى يدل فى اليهودية والمسيحية والإسلام على مبعث الشر ممثلا فى شخص بذاته، وقد كان فى الأصل ملكا، وعندما تمرد على الخالق سبحانه، سقطت منزلته، وأصبح من أهل النار، له سلطانه فى جهنم يأتمر بأوامره كثير من صغار الشياطين.

فالشيطان يغرى بالشر، ويقود للمعاصى، غير أن الإنسان بعزمه وقوة إرادته يدفع عنه هذا الشر وينتصر عليه بنعمة ربه، فالشيطان عاجز مقيد أمام القدرة الإلهية، ولا يستطيع أن يقدم على فعل إلا بإذن الله.

فهرس الموضوعات

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص. ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩